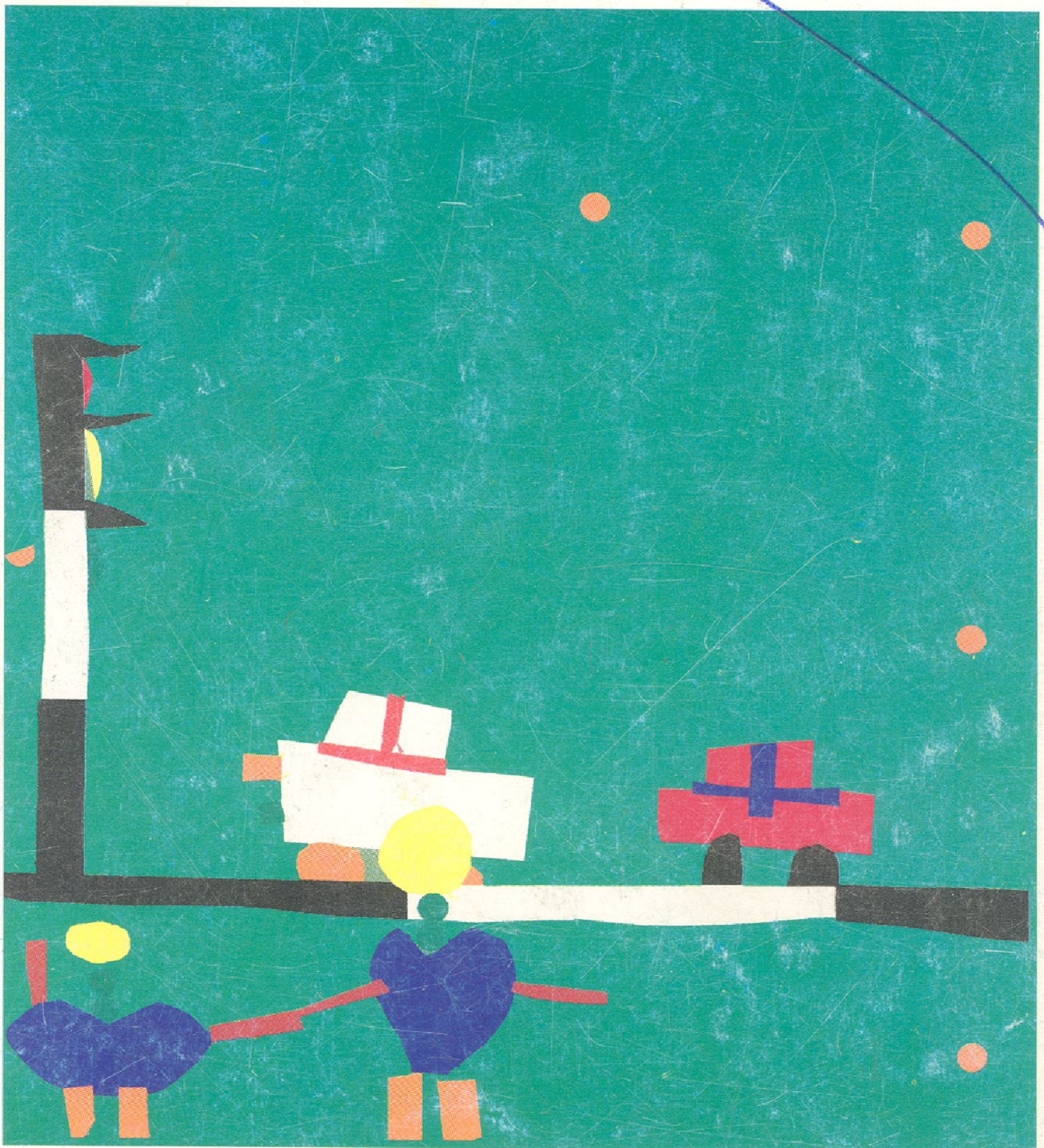




عمل نبيل



اللوحة : للطفل علي عبد الخالق ١١ سنة

إدوار الخراط

فد

عمل نبيل

مختارات

إدوار الخراط

263

أصوات أدبية

أصوات أدبية

سلسلة نصف شهرية

تعنى بنشر الإبداعات المصرية

الهيئة العامة لقصور الثقافة

• عمل نبيل - 263 - - قصص - إدوار الخراط

• الطبعة الأولى - منتصف يونيو 1999

باسم مدير التحرير على العنوان التالي :
١٦ أ ش أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١

البريد

رئيس مجلس الإدارة
د. مصطفى السرزاز

المشرف العام على النشر
علي أبو شادي

أمين عام النشر
محمد كشيك

الإشراف الفني
د. محمود عبد العاطي

رئيس التحرير
محمد البساطي

مدير التحرير
شحاته العريان



عمل نیل

أخذ جابر يسير متتداً، وشمس الغروب فى عينيه، على
شاطئ التربة المترب المزدحم. كان ينقل خطواته فى ملل.
وكان شعره مشعثاً ملقى إلى الوراء، وقطرات من العرق
منعقدة فوق جبهته، مصفرة فى احمرار حائل، وفى عينيه
تعب، وفى السماء حرارة مثقلة.

ألقى بنظرة إلى المياه الراكدة تهتز بين المراكب
الشراعية، العتيقة، وقد انبسطت أشرعتها المرقعة تتلمس
نسمة من الهواء.

ولح فى جوف مركب قريبة جماعة من المراكبية،
بأجسامهم القوية السوداء وثيابهم الباهتة المزرقعة راكعين
أمام موقدة من الفخار ينفخون فيها وهم يطهون
عشاءهم، والعدس الأصفر يبدو، وهم يحركونه بمغارفهم
الخشبية العتيقة، عجينة كثيفة تضرب إلى لون الغراء،
كأنهم يفيدون منه فى شد ألواح مركبهم القديمة بعضها

إلى بعض، حتى تستمد مهلة أخرى للحياة.
ومضى فى طريقه تحت أشجار الجميز الضخمة التي
تظله كما لو كانت عالماً منعزلاً بذاته من الأغصان الملتفة
الورق، والعصافير تتواثب فى أرجاء هذا العالم
باضطراب، تودع النهار بزقزقة عالية حادة النغم، وقد
شرد ذهنه رويداً وهو يسير فى الحرارة الخانقة التي
تسبق طراوة الغروب مباشرة، وعاد مرة أخرى إلى القهوة
المعتمدة المزدحمة التي تطل على التربة، تتدلى من بابها
زرعة صغيرة صفراء من اللبلاب، مهمة وجافة تناضل فى
سبيل الحياة باستماتة. كان ينتظر دقة الجرس الأخيرة
فى مدرسته، بصدر واسع رحب، بصبر جميل. جميل.
فإذا انتهت الحصّة الأخيرة وأطلق سراحه، اندفع هو
ورفيق أو أكثر، خلال الطرق الضيقة، يثيرون التراب بين
المنازل التي تتظاهر، من غير كبير نجاح، أنها أنيقة
كمنازل الحضر، حتى إذا ما وقع بصره من بعيد على
اللبلابة الجافة الصفراء، وعرف جمعاً من صحابه فى
القهوة صاح بأعلى صوته:

- يا عم متولى هات لنا طاولة اعمل معروف، طاولة
بسرعة وحياتك.

ويذهب إلى ركنه المعهود، أكثر أركان البؤرة، عتمة
وبعدا عن العيون، حيث يجثم الراديو الضخم، أسيراً
بجانب مواقد الجاز التى تزار وتفتح فى إعداد الطلبات
للزبائن.

كان يسير على التربة وهو يعيش فى هذا الحلم
اليومى مرة أخرى، حلمه السوقى المبتذل الذى يخلص
حياته. فرأى نفسه وقد ألقى بكتبه التعسة إلى أقرب
كرسى، ورفع الراديو إلى أقصى ما يبلغ صوته من
ارتفاع، وراح يلعب الطاولة فى حماس لن يفتر، يلعب،
وقد ابتداء يغيب فى غيمة غامضة مريحة من وهج الحرارة
وسحب الدخان المنعقد المتصاعد من جماعات الفلاحين
والأفندية، وقهقهات عم متولى المليئة وصياح الراديو
وأقراص الطاولة تصطفق وتقرقع، وصوت باخرة صغيرة
فى التربة تطلق صفارتها الحادة فجأة فتصيح الأذن
وتترك خلفها طنيناً هادراً يئز مع المواقد ويعوى مع

المذياح ويقرقر مع نرجيلة قريبة ثم يقهقه ويبصق ملء
الفم ويقسم بأغلظ الأيمان.

وإذا هو يندمج مع القهوة. كلها فى كيان واحد داكن
حار، وينسى المدرسة وسخفها وفراغ حياته وجمودها.
وتضيع حواسه فى غيبوبة من العتمة والسخونة
والصخب، وتنسل منه نفسه فى خدر ضاغط مؤلم لذيذ
ومعربد، يستغرقه ويلاشيه.

- خالى جابر، خالى جابر.

فى صيحة حادة نزقة.

وقف فجأة ودفع رأسه إلى الوراء فى حركة مباغطة،
وقد أنتزع من حلمه على غرة، كما لو كان قد هجم عليه
طارق مفاجئ. وانتبه ينظر إلى ابن أخته الصغير، قلقل..
وهو يناديه خارجا من بيت قديم حائل اللون، من تحت
السماء الموحشة بالغسق.

طفل ضئيل ناحل، يرتدى جلابيته الواحدة التى كانت
تفاخر فى يوم من الأيام بأنها بيضاء ناصعة، أما الآن
فمفسر أن تحدد لها لوناً على وجه الدقة، أهى رمادية

مغبرة نوعاً ما، أم هي تميل إلى شيء من الزرقة الكامدة،
أو لعلها أن تكون رصاصية باهتة قذرة، من آثار وحل لم
يشأ أن يزول، أو بقع زيت منسكب، أو ذكريات شاي
أسود، أو بقايا دماء حائلة من جرح قديم؟ أم هي مزيج
معجز في اللون من ذلك كله، وغير ذلك كله؟ عسير عليك
أن تحدد، على وجه الدقة.

طفل مستوفز نشيط يبدو في عينيه الواسعتين، على
الرغم من التراب والذباب، نوع من ذكاء شقي متقد.
- خالي جابر، اعمل لي مركب ويالله بينا نعومها في
الترعة، يالله بينا هنا كويس، لأقدام شويه أحسن، يالله
هه مد شوية.

وهو يشد طرف جاكته في إلحاح يغريه أن ينزلا معا،
كما اعتادا أن يفعلا في بعض الأصائل، إلى الشاطئ
المنحدر، يختاران لهما مجلساً على العشب الأخضر
الوافر، ثم يرمي جابر حمله المدرسي إلى جانب، وقد
انتقى منه كراسة يقطع منها كمية كريمة من الورق
تستحيل تواء إلى أسطول يغزو مياه الشاطئ الضحلة

الموحلة، مركبا ورقياً بعد مركب تتقدم مع الأمواج
الصغيرة المهتزة، تميل وتطفو وتغوص وتجاهد الماء حتى
تنقلب أخيراً وتمتلئ فتنفرد في الماء، وتعود قطعاً مبللة
مهيضة من الورق. وهما يصيحان ويهتفان ويضحكان،
يديران حركات أسطولهما ومناوراته في الأصيل الساكن
الهادئ.

وكان الطريق مترباً وقفراً في هذه البقعة، وقد امتلأ
بالشمس ونسمة العصر.

— لا يا فلفل معلش النهارده، أنا تعبان شوية، بكره
بقى.

ولكن فلفل يتذمر في كلمات متداغمة طب مركب واحدة
ولا اثنين بس، شوية صغيرة يعنى إيه، وكان جابر يحس
إرهاقاً مثقلاً وما زال بينه والبيت شقة، فاستند إلى جذع
جميزة ضخمة جافة منسية لم يبق لها إلا الجسم اليابس
المكسور العتيق.

— لا يا فلفل بلاش النهارده قلت لك، أنا تعبان جداً
من المدرسة ودروس المدرسة وقرف المدرسة، إسمع بكره

مش حاعمك مركب واحدة ولا اتنين حنعمل مع بعض
مراكب كثير، كثير.. مالهاش آخر.

كانت هناك صداقة بسيطة تربط بينهما، ألفة وتفاهم
مستتب لا تعبر عنه الكلمات، كعناق أخوى. لأن كليهما
يشعر، دون أن يدرك تماما، بالغربة عيناها فى بيئة
معادية، كلاهما ضائع.

وكانت الشمس تنحدر وراء أشعة المراكب المتزاحمة
التي تبدو من بعيد كأجنحة سوداء فى حمرة الأفق
والأمواج الصغيرة تصطفق بأخشاب المراكب، والنوتية
يعدون عشاءهم فيتصاعد بخاره الأبيض من القدور
القديمة المستديرة، والبهائم على الطريق، تعود فى
صفوف طويلة، محنية رؤوسها، تخور إحداها فجأة خوارا
طويلا متعبا، كأن فيه شكاة، وأصحابها يتبعونها بلا
اهتمام، فى سحابة من التراب، تنسكب عليهم موسيقى
نزقة مرحة من العصافير المشقشقة بين هامات الشجر.

ونظر جابر إلى الصف الطويل من الأوكار الريفية
التي يسميها أصحابها، بحسن نية. منازل. تلك البؤر

المتداعية ذات الطلاء المتساقط والشرفات الخشبية
المعوجة والأبواب الفاغرة، تبدو في العتمة الداخلية كأنها
تغوص قليلا قليلا في تراب الطريق، يدوسها الغسق.

ووقف عند بيت أخته، وبدا له في الضوء الخابى من
فتحة الباب، حصير وأدوات منزلية غامضة المعالم ركنت
إلى الحائط، وماعز مربوطة إلى وتد فى الفناء. ودجاج
يروح ويغدو بين أقدامها يلتقط من الأرض، على أشعة
النهار الأخيرة، ما يجد من طعام، وينق لأنه لا يجد شيئا،
ولأن الظلمة قادمة.

وارتفع بصره إلى الجدار الخارجى، بطلائه الأصفر
القديم، وسور السطح المائل المتداعى، والنوافذ المسدودة
بالخشب الخام. فتكوم فى نفسه السخط والضيق
والغضب، وارتفع، وانفجر فى داخله كما ينفجر لهب
مكتوم.

– هذه الزرائب تعيش الناس فيها؟

– إيه يا خالى بتقول ليه؟

رأى عينين واسعتين عميقتين تطلان بتساؤل فى عينيه،

عينين يتوقد فيهما ذكاء شقى حاد، سوف يتثلم حده،
وعمق سوف يضمحل، ويتوقد فيهما مع ذلك شعاع
غامض من حزن وإدراك.

من يدري؟ قد يتحول هذا الشعاع إلى لهيب كبير يغذو
محرقة، ويلتهم هذه الزرائب وماوراءها في ألسنة النار،
لهب قد يخمد ويختنق بين الرماد والحطام، وقد تثب
منه النار قوية فتية. أو تطفئها دموع العجز، والانسحاق
وقطرات العرق الباردة المتربة تسقط من جبين كليل.

لكن ماذا يهم كل ذلك الآن. طال به الوقت منذ ترك
القهوة، وعليه أن يذهب يتعشى سريعا ويكمل عشرة
طاولة، وسوف يمر في الغد على فلفل، يصنعان مراكب
من ورق.

- لا مفيش حاجة يا فلفل. ما فيش حاجة. إبقى
استناني بكره العصر، هنا برضه. وأكد له الضوء المتألق
في عيني الطفل أنه ليس في حاجة إلى من يذكره. وأنه
لن ينسى في الغد.

انحدر في الزقاق الضيق، واصطدمت قدمه عفوا

بكومة السباخ وأفلت كتكوت من تحت حذائه بمعجزة لكى
ينضم إلى قبضة من الكتاكيت تنقّ وتتنادى وتجرى فى
عقب النهار، ونفذت إليه أصوات عراك، بقية عراك الأمس،
بين محضر المحكمة وزوجته السليطة.

وصعد إلى منزل أبيه عتبة رخامية متآكلة مدفونة فى
تراب الشارع. وترك الباب مفتوحا ليجلب قليلا من الضوء
وقليلا من الهواء.

وألقى نظرة غريبة إلى داخل المنزل، يتأمله كمن يراه
لأول مرة. هذا البيت الذى ولد فيه وعاش تلك العشرين
عاما من حياته، وقف فى الغسق يحدق كغريب. ورأى
السلم الصاعد إلى الدور العلوى، بدرجاته المكسوة بطبقة
من التراب المتحجر الجاف، وحوض المياه الجديد تحت
السلم وأوانى للطبخ مهمة تحت الحوض، وماعت قطة
كانت تنسل تحت الحوض إذ سقطت على رأسها قطرات
من الماء.

ووقفت عيناه على الباب المقفل دون شقة عبد الجاوى،
البحال الذى يستأجر الطابق الأسفل كله، فيما عدا حجرة

جابر، يساعد أباه بهذا الإيجار على العيش.

كان أبوه مزارعا فى عزبة البية، وأفق آماله الذهبى يحيط بولده جابر، إذ يتخرج من مدرسته ويصبح هو الآخر ناظرا، أو مهندسا، أو صاحب عزبة، لم لا؟ ليس على الله شىء ببعيد.

ولم يستطع جابر، فى وقفته الغربية بالباب، أن يحول بصره عن أرض البهو الصغيرة القذرة والبلاط المتكسر تنبثق من شقوقه حشائش صغيرة، وروث بهيمة لعلها مرت فى طريقها إلى الزريبة بالفناء الداخلى، وفضلات دجاج تحيط بالبركة الطينية الصغيرة المتخلفة عن ماء الحوض فوق البلاط.

وانفتح الباب فجأة، وخرجت منه نجيبة، زوجة عبد الجاوى، وفى يدها أنية نحاسية تمسح عنها إلى الأرض بقايا طعام، بلا اكتراث، لكى يلتقطه الدجاج.

وباغتته وهو ينظر إلى الأرض، وعلى وجهه تعبير ممض. ونظرت إليه بدهشة، فتدارك قائلا :

- سعيدة يا نجية.

- سعيدة يا خويا، واقف كده ليه، فيه حاجة؟ مالك،

عيان ولا إيه؟

- لا أبدا، بس أصلى، أصلى تعبنا شويه، من الحر.

أصل الدنيا حر النهارده.

واستطاع أن ينقذ نفسه أخيراً، بعد تلعثم، بهذه

الكذبة. وابتسمت، وقالت كلاما تقصد به النصيح، أو لعله

ترفيه، أو كلام عن الجو أو شيء من هذا القبيل، ثم ذهبت

إلى الحوض وفتحت الصنبور اللامع الجديد، تغسل

أنيتها، وتمهل يرقبها لحظة، لمحة بصر.

لم تكن جميلة. وكانت تكبره فى السن قليلا، لكنها

كانت عذبة ووهج الشباب يشع عليها نوعا خاصا من

السحر، أخاذا. وعيناها كل شيء فيها، عميقتان،

مصريتان، فيهما حساسية وذكاء وعطف. ولهما لونهما

الخاص الرائع. لون مياه النيل فى بقعة صافية، عند

الفيضان، مزيج من السماء والطمى والعسل. وكانت

ذراعاها عاريتين وقطرات من مياه الصنبور تسقط على

ساعديها وتتعلق بمرفقها الأبيض. وعيناها فيهما نظرة
حانية، لأنها بعيدة ومقهورة، حائرة ولا تقع على شيء.
لكنه لم يكن يولى نجية كبير اهتمام. لم تكن تسترعى
انتباهه.

ودخل غرفته وأقفل بابه وأوقد مصباح الجاز على
مائدة كتبه. وأخذ المصباح يشيع في الغرفة نوعاً من
الضباب المنير القاتم، بين الصفرة والحمرة الشاحبة، وفي
هذه السحابة من أزيز المصباح وهو يتقد في أذنه جلس
على مقعده، وألقى برأسه بين يديه وأخذ يتحسس
جمجمته المصدعة. رأسه يكاد ينفجر. أمرض هو؟ كما
تساءلت نجية؟ أم الحرارة حقاً هي التي تنال من كيانه
كله؟ وهي التي فتحت في نفسه ببطء أبواباً ثقيلة وشاهقة
عن آفاق شاسعة خواء، كأنها أبواب المدن النحاسية في
ألف ليلة؟ أذاك مرض أم طارئ جديد غامض. ذلك الذي
اندس بين عظامه أخيراً يبتل له السم في كل شيء،
يجرعه مرارة ويصهر أيامه في حمى بطيئة خامدة. حمى
السالم والاستياء الذي لا سبب له، حمى التطلع بعيون

دفينة محرومة إلى ذاك الذى لا يمكن الحصول عليه.
- مرض أو عفريت. ماذا يعنيه الآن من ذلك كله. لا
أهمية لشىء ما.. لأى شىء.
وبالطبع كان ذلك كله يعنيه بل يهمله. ولكن ما بوسعه
أن يفعل؟
لا يزال قبل العشاء ساعة أو أكثر، وليس أمامه ما يقتل
به هذا الوقت.
رفع فتيلة المصباح وترك البترول فى جوفه يئز ويتقد،
وفتح كتابا - بعد اختيار دقيق - من كتبه المدرسية.
وأقنع نفسه بأنه يقرأ ثم أفاق بعد لحظة فإذا به يقلب
الصفحات الواحدة تلو الأخرى، دون أن يدرى وفى ذهنه
ضباب لزج.
- كم هو بائس، بائس وتعس. ما جدوى حياته؟ ما
قيمة هذا الوجود السمج التافه. بلا طعم، ولا معنى؟
واختلطت الأشياء أمامه، وصعد إلى عينيه غيام يرتفع
عن ينبوع دمع متحجر، لا يريد أن ينبجس.
وانطلقت من فمه ضحكة مرة، هى حشرجة قصيرة

تشبه الضحك.

- أهو مشفق على نفسه إذن؟ يبكى؟ يربت على نفسه
ويمسح كتفها، وينوح على حظها التعس، كما يفعل المرء
مع قطعة هرمة مريضة؟

وضحك مرة أخرى من نفسه، فى سخرية كالعلقم،
يرثى لنفسه.. هه.

ورن فى أذنه صوت حريرى ناعم، أوه. مِرْسَى.
أشكرك.

فرفع رأسه فى حركة سريعة وارتسم على شفثيه شبح
ابتسامة أملة خائفة، وتآلق فى عينيه ضوء بعيد. لكنه لم
ير شيئاً هناك. لم ير سريريه المزوى فى ركن، ولا الصور
القديمة التي سوّدت جوانبها خيوط الذباب المعلق الراقد
فى الليل، ولا مائدة كتبه تسبح فى ذلك الضباب الشفاف
من مصباح الجاز، بل انفتح أمامه أفق مشرق يانع فى
صباح حار. والطريق الزراعى يفضى إلى العزبة. وهو
وأبوه وخفير العزبة وجمع من الفلاحين يسرعون لاستقبال
سيارة سوداء فخمة كانت قد انشق عنها الأفق، وهى

تقبل مارقة فى سرعة متهورة، وقد كادت أن تنقلب فى
الترعة وهى تتحاشى جاموسة مهرولة ثم أفلتت، وهى على
حافة الترعة، بأعجوبة، وانطلقت على سرعتها تصفر وتثير
التراب، حتى وقفت فجأة، بعنف. حيال جرن العزبة.

كانت تلك بنت البيه، أقبلت بلا شك من مصر فى
سرعتها تلك المتهوسة. وكان واضحاً أن هماً عاجلاً يثقل
صدرها الأنيق الرقيق، وأن شيئاً ملحاً حيويًا ينتظرها فى
القاهرة، كانت تنظر إلى ساعتها بسرعة وقلق، وأنفاسها
تتابع، وهى تتطلع من نافذة السيارة فى نفاذ صبر. فتاة
نحيفة ممشوقة، لها نوع من الفتنة المترفة، بعينيها
الزرقاوين وشعرها الذهبى المجموع فى عقصة باهرة.

واكتسحت جمع الفلاحين بنظرة واحدة، بلا مبالاة،
واستقرت العيناوان الزرقاوان على أبيه وهو معرفة قديمة،
وبادرت فى لهفة، قبل أن يجد الفرصة ليلفظ كلمة ترحيب
واحدة.

– بابا هنا يا عم حنفى؟

وأخذ العجوز الطيب القلب قليلاً، لا تحية ولا سلام، ثم

أجاب سيده الصغيرة أن نعم. البيه في السراية، وأنا
جميعا في غاية السرور لرؤيتها.. وأن.. وكيف صحة
الآنسة.. ولعلها بخير؟

ونظرت إليه لحظة من داخل السيارة، في تفكير شارد،
ومن الجلى أنها لم تسمع شيئاً بعد كلمة نعم. ثم بدا
لها، فتذكرت انها لم تحي الرجل بعد، فابتسمت وسأله
عن صحته؟

وفتحت حقيبة يدها على الفور، قبل أن تكمل جملتها،
والتقطت منها قلماً، وبحثت عن شيء، ثم أخرجت رسالة
زرقاء ألقت عليها نظرة واقتطعت من آخرها، على جنب،
طرفاً من الورق. وراحت تعبث بقلمها في زجاج النافذة،
في سهوم، بينما الجمع ينهال بوابل من التحيات
المضطربة والتمنيات المؤدبة يختلط بعضها ببعض.

وفتحت باب السيارة فجأة، ثم قفزت إلى الأرض في
حركة نزقة، وفي يدها القلم وقطعة الورق، وأحدثت سرعة
حركاتها تلك نوعاً من الصمت المفاجئ. وراحت تدور في
الجمع بنظرة باحثة، فعبرت بنظرها حشد الأطفال

المحققين إليها بعيون حمراء، يتعلقون بثياب أمهاتهم في خوف وتطلع، وجمع الفلاحات المخفيات أسفل الوجه بالطرح السود، والفلاحين المبتسمين عن آخر نواجذهم في تطلع خشن، وأباه الفائض بعبارات الترحيب. ثم استقرت عيناها عليه أخيرا - هو - لحظة أو لحظتين، في نظرة متسائلة، كمن يجد في جمع مألوف من الحيوان، حيوانا غريبا جديدا.

واتجهت إليه في حدة، وسألته بغتة: هل يعرف القراءة والكتابة؟

وبهت ولم يستطع إلا أن يجيب بنعم هزيلة خافتة من أقصى حلق جاف.

وقد عجب لنفسه بعد ذلك. نعم؟ أهذا كل شيء؟ ألم يستطع أن يقذف في وجهها بعباراة حاسمة نافذة. تسأله أيعرف القراءة والكتابة؟ هو. بكل ثقافته وقراءاته؟ لقد أعد لنفسه بعد ذلك ألف نوع من الإجابة الساخرة والبارعة والرائعة والمستهترة. آتته في وحدثه حينما كان الموقف يتمثل له، مرات بغير عد، وفي كل مرة إجابة جديدة

نفاذة، حادة كطعنة أو رقيقة كقابلة. أو متعالية. لكنه فى
المرّة الحقيقية الأولى لم يستطع إلا أن يجيب نعم هزيلة
مبحوحة خافتة، كأي جلف فلاح.

وأعطته القلم والورق، وطلبت منه أن يكتب لها وهى
تمليه قائمة مصروفات.

واتضح السر، إذن فهى قادمة من مصر تطلب من
البيه والداها كمية أخرى من النقود، ثروة صغيرة بلاشك،
متذرعة بقائمة المصروفات، كأنها لم تكن تستطيع صبرا.
ولم يكن لديه ما يُسند إليه الورق ليكتب عليه. فاحمر
وجهه واضطرب وتقصدت على جبهته بسرعة قطرات من
العرق ووقع بصره على نافذة السيارة الزجاجية فأسرع
يسند إليها الورق.

وأخذت تملئ عليه وهى تفكر، قائمة نفقاتها
الأسطورية. أرقام ضخمة مزعجة. لكنه لم ينزعج ولم
تأخذه المفاجأة. كان يقرأ المجلات ويعرف أرسقراطيات
«المجتمع» كان فتى عصريا وأسماء النوادى والمحلات
الكبرى فى مصر لم تكن لتدهشه. فهو يعرفها جد

المعرفة. قرأ عنها بإلحاح ويحلم بها.

ونظرت إليه في دهشة خفيفة مستغربة، فلم يرفع إليها
بصره، في تساؤل وارتباك، كما كانت تنتظر، كأنما كان
على خبرة بما تملئ عليه.

استعاد هدوءه، وثقته وهو يكتب، وبدا وجهه منعكسا،
على زجاج النافذة، شاحبا مكبوحا كمن يعاني ضغطا
جسمانيا، ثم لمح في طرف الورقة الزرقاء، على الوجه
الآخر، خطوطا من كتابة سريعة أظهرها الزجاج
الشفاف. ولكنه لم يستطع أن يقلب الورقة بالطبع، ولم
يستطع أن يميز الكتابة، وقد حفزه فضول لا يقاوم، فراح
يحاول قراءة الكلمات المقلوبة، من على الزجاج، وهو يكتب
في الوقت نفسه، وركز جانب بصره في هذا الركن.

وسطعت الكلمات لذهنه فجأة، من خلف الورقة
المقطوعة - الماضية وألف قبله - ثم بداية إمضاء
مضطرب منقطع.

هبط قلبه دفعة واحدة ثم اندفعت الدماء إلى وجهه في
نبضات سريعة قوية، وقد اشرقت الكلمات أمام عينيه،

بكل معانيها ، بكل حيوياتها .

- وألف قبلة .

ترى ممن جاعتها الرسالة؟ وما قصتها؟ إنه - هو -
في حياته كلها لم يكتب لفتاة . ولم يرسل قبلات لأحد .

وانتبه إليها يسألها في شرود: نعم؟

كانت تقول له شيئاً لم يسمعه . ورددت في ضيق
عصبى، إذ لم تلحظ انه قرأ الكلمات الأخيرة من
رسالتها، تسأله أن يجمع لها القائمة . لم يكن لديها وقت
أن تجمعها من قبل .

- شوف لى المجموع .

ثم صمتت لحظة . وتذكرت أن تقول بأدب . خيل إليه أن
فيه سخرية خفيفة:

- من فضلك؟

وأخذ يتمتم ويمر بالقلم على الأرقام الكبيرة، وقد
عاوده اضطرابه، فساعده أبوه في المهمة الشاقة، وتمت
العملية المجيدة في النهاية، ومد لها بالقائمة يدا خجلة
ترتعش، لا تتقدم ولا تملك أن تتراجع . واختطفت منه

الورقة، ومرت ببصرها على القائمة وهى عاقدة حاجبيها
الرقيقين، مقطبة فى اهتمام، ثم تحولت إلى حيث أقبل
الناظر يسبقها إلى والدها البيه، فأفسح لها الفلاحون
الطريق.

ونظرت خلفها بلا اهتمام فرأته بنظر إليها كمن ينتظر
منها شيئاً، وشرد بصرها لحظة ورن الصوت الناعم
الحريرى:

- أوه. مرسى. أشكرك.

وابتسمت ابتسامة حلوة. ومضت.

وأسرع خلفها الفلاحون، مدفوعين بفضول غير مفهوم،
وهرول أبوه فى الركاب، واستمر الناظر يرحب بسيدته فى
وقار وجد.

لكنه هو ظل فى مكانه أمام السيارة يحدق فى الفراغ،
ويقطب ويبتسم لنفسه، ويلمس زجاج النافذة بأصابعه
دون أن يدري، ويبتسم ويقطب مرة أخرى.

وبعد فترة من الزمن، عادت إلى سيارتها، بخطواتها
الرشيقة المتلاحقة، وألقت عليه نظرة متسائلة لا مبالية.

تماما لو كانت تنظر إلى الغفير، أو إلى جاموسة عابرة،
أو كلب العزبة أو شجرة فى الطريق. نظرة بلا مضمون،
بلا اكتراث، دون أن تعطى تفكير لحظة واحدة.

ثم انطلقت السيارة الفخمة السوداء، تصفر فى سرعة
وتثير خلفها سحابة من التراب.

كان يسمع صوتا منغوما يتكلم من بعيد، من وراء
ضباب.. الماضىة. وألف قبلة. وبدا له الصوت مألوفاً
والحديث مفهوماً، سياق الكلام مطمئن طبيعى. تلك
الذكرىات. الأيام. المرات الماضىة. وألف قبلة. لكنه لا
يستطيع أن يتذكر تماماً.

- مالك يا جابر. انت عيان ولا إيه. أوه. مرسى.
أشكر. وصوت أبيه. آه صوت أبيه يتكلم. ولكنه يقول
كلاما طويلا بنغمة مصقولة مرحبة. كيف صحة الأنسة؟
ولعلها بخير؟ والراديو يصرخ ويعوى ومواقد الجاز تنز.
لشد ما كانت المواقد الحارة تنز.

- شيش بيش. جهاز. دوييا. شوف لى المجموع من

فضلك؟

وقهقهة وبصقة تنطلق ملء الفم. وصفير حاد من
باخرة فى الترعة. اعمل لى مركب ورق. معلش واحدة بس
ولا اثنين.. وهو يحدق فى ضباب بارد. فى بخار أبيض
يتصاعد من بعيد من قدر العدس. وكتكوت يجرى وهو
يصوصو، ليصطدم بكومة من السباح، لكنه يغوص فى
داخلها كأنما تتحلقه وتطويه فى ترابها. وهو لا يندهش،
كأنه قضى عمره يرى أكوام السباح تلتقم الكتاكيت
الهاربة. وقطرات الماء تتساقط على ذراع غضة عارية،
بيضاء فى ظلمة الغسق، وتسقط من طرف الكوع الناعم،
وهناك عينان تطلان بتساؤل فى عينيه. وكان مهموما
يسائل نفسه فى قلق وحنق، لأنه لا يعرف، عينا من هما؟
عينا فلفل؟ نجية؟ أم - عيناها؟ أية غباوة. إن عينيها
زرقاوان إنه ليذكر ذلك جيدا. وليستا فى هذه السعة
والرحابة. بل زرقاوان فيهما نظرة ضيقة لامبالية.

والعينان تلوحان فى إصرار من خلال سحب الدخان.
وتحدقان إليه من مياه الترعة الحمراء التى تصطفق بين
خشب المراكب. وسحابة من الغبار تتور خلف السيارة فى

طريق مشمس مقرب. والحرارة خانقة في الضباب.
والعينان تتسعان، تتسعان أيضاً. حتى يسود الظلام.
وحرارة المواقد وهى تفح.

وعندما نادوه للعشاء، ولم يجيبهم أحد فتحوا باب
غرفته فإذا مصباح الجاز اخذت فتيلته ترتعش وتدخن
وترسل لها عالياً محمراً ثم تنخفض بسرعة وتتتابع فى
نوبات متعاقبة محتضرة.

كان نائماً على مائدة كتبه، ورأسه على كتاب مفتوح،
وشعره يكاد يشيط من المصباح القريب. حرارة متقبضة،
وضباب مرتعش من العرق البارد على جبهته، وأصوات
تتنادى. وفتح عينيه وراح يحملق أولاً فى تبلد، بين النوم
واليقظة. ثم فهم، فأجاب فى ضيق وكسل:

- حاضر. جاى أهه.

وصعد إلى الدور العلوى ليتعشى مع عائلته، يؤدى
ضريته.

كان مضطجعا، نصف قاعد، على سريره الحديدى
القديم، وهو ينظر إلى النافذة المقفلة التى يشع عنها فى

الغرفة ضوء شاحب مشبع برائحة السبخ الحريفة الجافة. وكانت الشمس تسطع على خشب النافذة من الخارج. تصليه حرارة. وتلقى من خلاله على أرض الغرفة خيوطا مستقيمة متجاورة يسبح فيها الغبار الدقيق. والغرفة المقفلة تبدو مقفلة بنوع من النور، غريب شفاف، يعطى للمكان راحة وسكونا مرهفا، كأنه صومعة مقفلة صحراوية، معلقة النفس.

لم يكن يحب أن يدع النافذة أو الباب مفتوحا، عادة مستحكمة، أن يحيط نفسه دائما، طالما كان ذلك ممكنا، بجو محكم وثيق. ويحس نفسه تتشتت منه ما لم يحكم سدها.

وتقلب على سريره إلى جنب. ومرت أصابعه بشعره فى عنف ضيق، وضم رجليه إلى صدره، كالجنين يتململ فى رحم أمه، فالحجرة حارة مبهورة، بل هى تنهج وتشرئب بالنفس. ولا جدوى من فتح النافذة فى شمس الظهر هذه.

يوم الجمعة، ينتظره طول الأسبوع فى صبر نافد، ثم

يضيق به إذا جاء، كأنه عذاب لا يعرف المفر منه.

وسمع وقع أقدام تقترب من غرفته، وتقف بالباب هنيهة، كأنها تردد. ودهش قليلا، ثم رأى الباب ينفتح فجأة، في عزم وحدة ترتفع بلا قصد إلى حد العنف، فاعتدل في جلسته، وزادت حرارة الغرفة بما ملأها من هواء ساخن مترب، فهز رأسه كأنما يزيحه عنه. وابتسم ابتسامة باهتة.

وقفت نجية قليلا ويدها على مقبض الباب، وكان في مظهرها ثم شيء غريب جعله يعتدل تماما في جلسته، ويحدق إليها.

كانت تأتيه كثيرا في غرفته. تطلب إليه شيئا أو آخر من الحاجات المنزلية الصغيرة. فقد كان يحب أن يعيش في غرفته تلك منفردا عن عائلته أو يكاد، يكفي حاجاته بنفسه بقدر ما يستطيع. كانت تطلب منه أحيانا قليلا من الجاز أو الشاي، أو إبرة وابور أو صحيفة قديمة. لكنها الآن تبدو غريبة، كأنما يحيطها وهج منبعث عن مصدر خفي. وفي وقفها بالباب تبدو كتمثال يفور بحزن مكبوت

جامد، بلا صوت. وتذكر دفعة واحدة تلك المناقشة الحادة. التي دارت بالأمس فسمعها من خلال جدار غرفته، بعد العشاء، وأذلها فيها زوجها، ودفعها في النهاية إلى البكاء، ملتاعة تخافت بدمعها، كذلك كانت تنتهي مناقشاتهما عادة.

كانت حياتها الزوجية مأساة قديمة مبتذلة متكررة. زُوجت في السادسة عشرة من نجار لم تكن تعرفه أو تحبه، وجاعته بولد علمها كيف تعرف، وكيف تحب، وابتدأت تذوق طعما للحياة. ولكن الطفل مرض. مرض ومات في آخر الأمر، في ظهر حار. في مثل هذا الظهر. وخيل لزوجها الأول، بصورة لا تفسير لها. أنها هي التي أفقدته طفله، وعندئذ انسلت في حياتهما امرأة أفعوان، زوجة أخرى. نصف، داهية. وبعد شهور من الذل طلقها النجار، وعادت تعيش مع أبويها الفقيرين. ولم تكن بمقدورها أن تستمر عالة عليهما، فرضيت بزوجها الثاني، هذا العبد الجاوى. وكان ناجحا في نوع عمله، ومن خير ما يوجد في السوق لهذه السلعة التي هي جسد الشابة

المطلقة. كان الرجل يعيش في عالمه الضيق من الحواس
الخشنة، عمل وامرأة وطعام. وهو أيضاً نصف عمر، طلق
امراته الأولى لأنها لم تنجب له ولداً، وهو يشتهي الولد.
رأى لداته يذكرون أبناءهم، في حفظ الله في نعمة هادئة
من الرضى، ويعوذونهم من العين بالخميسة الزرقاء من
الخرز. فاشتهى أيضاً أن يكون له النسل يستكمل به
حياته.

وهاقد مضت سنتان أو ثلاثة منذ تزوج للمرة الثانية.
ولم تعطه نجية بعد ولداً. وكان من الواضح أن الرجل
عقيم، لكنه لم يكن ليخطر له ذلك على بال. لم يكن يريد
أن يفهم ذلك. فزوجاته هن المسئولات بلاشك، وهو عند
اتفه نزاع، يهددها في بساطة، ان يسرحها، أو على
القليل يستجلب له امرأة أخرى، ضرة لها. تخلف له.

وفى ليلة أمس كاد عبد الجاوى يلفظ بكلمة الطلاق،
كاد أن يقضى عليها. ومثل لها مستقبلاً، مطلقة للمرة
الثانية، وقد جاوزت شبابها الأول. من يرضى بها عندئذ
إلا حشاش، ربما، أو عربجى، ثم يطلقها بدوره، لتستحيل

بعد ذلك إلى عاهرة شرعية، تباع جسدها بالتتالي، في
الحلال، لمن يدفع الثمن التافه، طعامها ومأواها لبضعة
أشهر؟ على أن لها بالطبع أن تبقى بلا زواج إذا شاعت،
بلا طعام تقريبا. أو... هذا المصير المظلم كله.

لذلك كانت تتعلق في يأس بشقائها الراهن وبزوجها
الجافى، لذلك بكت.

وأدركت أنه يفكر - معها - في ليلة الأمس. وكانت
متفحلة ولعت في عينيها دمة مرارة، على أنها استطاعت
أن تبتسم.

كانت واقفة بالباب، ممسكة بمقبضه، والنور المبهم
المعلق في الغرفة كأنه يدعوها، وثم حنان غامض ينبعث
من حرارة المكان، وكانت ترتدى ثوبا قصيرا من نسيج
خفيف، يتفجر تحته لحمها الممتلئ بالشباب، وشعرها
الناعم ينسدل في خصلات سوداء غير منتظمة، ووجهها
غض مخضىء بنور داخلى لماح. وعيناها، عيناها،
العميقتان بلون النيل الطامى، ذلك المزيج من ضوء
السماء ومياه الفيضان وعمق غريب آخر. عيناها

الحزینتان العطوفتان. وصدرها يبدو زاکیا متمردا علی
فتحتہ، یرتفع ویهبط کموجة آتية علی جسر النهر، من
بعید.. وحاولت أن تبسم أيضاً، لكنها كانت ابتسامة
شیء محتضر یقوم بجهد أخیر. ابتسامة واهنة متهافئة.
وتدافعت إلی وجهه الدماء، ثم فرت منه بعد لحظة،
وترکته شاحبا یتنفس بمشقة. لم تكن قد وقفت بالباب
أكثر من لحظة، ویخیل إلیه أنه یراها هناك منذ الأزل،
كان کل شیء یجری فی نطاق المألوف العادی، لكنه یلوح
فی مستوى غامض صوفی کأنه حلم من أحلام التخلق
الأولی.

تقدمت إلیه، کالعادة، تطلب منه علبة کبریت، وحاول
کلاهما أن ینسى تلك اللحظة المشحونة. فأخذ یبحث فی
جيبه وهو یسألها مازحا عن معركة الأمس. لماذا تهيج
الرجل الطیب إلی ذلك الحد؟ وتجعله یصرخ فی اللیل،
کذب جائع، وأجابته بشیء تافه وهی تضحک، ثم سألتہ،
کالطفل، عما هو الدب؟ کأنها لا تعرف.. وأخذ یشرح لها،
مغتبطا بسعة علمه، کیف أن الدب حیوان ضخم خطر

يعيش فى البلاد الباردة البعيدة، ويشبهه - يشبهه ماذا؟
يشبه الفأر السمين حين يكبر ويكبر حتى يصبح أكبر من
الجاموسة.

وترددت ضحكاتهما المتهاففة الضحلة. وتلامست
يداهما وهو يعطيها علبة الكبريت. كان من العبث أن
يتجاهلا ذلك الشيء القائم بينهما. كانت الدماء تضرب
فى شرايينهما معا، كرصاص مصهور.

وكانت الحرارة تخدر حواسهما، والنور الغامض
يدعوهما وأمسك بيدها ونظر إلى عينيها برغبة،
بانسحاق. والأزيز الكثيف يطن فى رأسه، وهو يسألها
فى لهجة مثقلة، ملهوفة:

- اسمعى يا نجيه، طب وان ماخلفتيش يعنى، ما هو
دا اللى حيحصل يانجيه، حيجرى لك إيه؟

فافلتت تنهدة صغيرة يائسة، فى سخرية، وهى تستند
إلى قائمة السرير، وفى يدها علبة الكبريت الصغيرة،
الحمراء، ويدها الأخرى قد تركتها، فى يده، وهزت
كتفيها:

- تفتكر حي جرى إيه يا خويا، حيطلقنى.. آل أدى
القوله وأدى كيالها، آل ياعور ضربوك على عينك.
ومصمست بشفتيها، وهى ترميه بنظرة.
وجذبها إليه فى لهفة، مندفعة ومتردة، وتركت نفسها
تطيعه، وهى لم تعقد عزمها بعد، وقال فى لهجة مكبوحة،
بصوت أجش وأنفاسه متسارعة:
- نجيه.

فشهقت وهى تقول بصوت خافت فيه خوف وضحك
ولهفة:

- ياختى.. ياشيخ بلاش هزار اعمل معروف، بتعمل
إيه؟

وثارت فى جسدها زوبعة، وشملها الضوء المرهف
المعلق. واحتضنها نوع من الدفء والغموض والحنين
المبهور. وكانت مسكته بيدها رفيقة، فيها تملك مع ذلك.
وهزت رأسها تزيح خصلة من شعرها المنسدل على
وجهها السخن، وحاولت أن ترى وأن تفكر، لكنها كانت
مجرد محاولة، مجرد إرادة للمحاولة. وانسدل على عينيها

قناع مموج ساخن من نور الغرفة وضوء عينيه، وحرارة
الأثاث الخشبي المصطلى فى الشمس، وحرارة يده التى
تضغط على يدها فى هدوء وحنو ونداء لا يرد. ورفعت إليه
بصرها، كانت عيناه مستقرتين على منبت ثدييها
النافرين، يبدو من آخر فتحة ردائها الصيفى. وقرب إليه
وجهها.

واستمرت الظهيرة المتوهجة تسطع على خشب
النافذة، والشمس تدور ببطء بعيدا فى السماء، وخطوط
الضوء المستقيمة المغبرة تسقط من النافذة المقفلة، وتدور
ببطء على أرض الغرفة.

ونسيا الشمس والنهار والسماء، ولم يعودا يعرفان
غير شبابيهما المضحى وفورة الحس المكبوح، نسيا العالم
فى نشوة نابضة مرتعشة متطاولة. وأغمض عينيه. نسيا
هذا العبد الجاوى وولدهما المنتظر له، هذا الولد الذى
كان سببا فى هذا العمل، سببا صادقا نبيلاً لهذا العمل
الصادق النبيل. العمل النبيل؟ ماذا يهمله النبيل أو الضعة
فى ظهر هذا اليوم الحار؟ ورأسه يدور فى غيمة كأنها
أزيز المواقد، ثم انسدل على ذهنه سكون حى رائع عميق،

لا تقطعه غير أصوات أنفاس متلاحقة وهمس كأنه فى
الحلم،

– وألف قبلة.

وتأملت أمامه فى حمى، عيان زرقاوان وشعر ذهبى،
ورن صوت حريرى ناعم. وانطلقت من فمه ضحكته
القصيرة المرة، حشرجة تشبه الضحك، وغاصت يداه
تتلمسان، تتكشفان، طيات الجسد الناعم الحار، وتطبقان
على ركبتيها الباردتين يغطيها عرق خفيف كالندى،
وتضمهما إليه. ونظرت إليه فى خوف ودهشة، وأغمضت
عينيهما تخفى عن بصرها عينيه المتقدتين الهاديتين. انه
الآن ينتقم. ينتقم من كل الشعر الذهبى فى الوجود كله.
من كل الجمال المترف الباذخ، من كل النظرات الزرقاء
بلا مبالاة، ينتقم فى روعة لاتحد، من أجساد السيارات
الناعمة المنسابة، ومن ملل الدروس السمجة التي لا
تنتهى، ووحشة المنازل الكئيبة، فى ظهر هذا اليوم الحار،
يثأر لمأساة حياته الخامدة، وينتصر. فليدع مرارة لياليه
تصفو الآن وتروق، ماذا يهمه من أحلامه الساذجة البريئة
التي طالما عمرت فراغ شبابه، ماذا يهمه الآن؟ فيلرو

أحلامه العطشى الحوشية، وهو يجمع بين قبضتيه الكنوز
المليئة، وهو يضم ملء ذراعيه هذا الحلم الذى يلتوى
ويرتجف، فى ظهر يوم حار.

وانطلقت من فمه ضحكته المريرة المستمتعة. وارتعشت
نجية بين ذراعيه وسرى فى قلبها رعب بارد وحاولت أن
تتخلص منه، فضمها إلى عظام صدره فى عنف متزايد
ملح، وأنفاسها مبهورة من الخوف وأنفاسه لاهثة. وشيء
كالقت ياكل قلبيهما معا. وهو يعصر بين جسديهما
التقرز الذى يرهف أعضابه ويشدها. ووجهه يدوس كتفها
الطرية. ألف قبلة، فى سورة ضاغطة منبثقة أخيرة، سورة
الراحة.

وماتزال الشمس تسطع على خشب النافذة، والخطوط
المستقيمة المتجاورة من أشعتها مستلقية فى همود
شاحب بجانب الباب، وقد دارت كأنها تريد أن تفلت من
تحت الباب، والأنفاس المعلقة المبهورة فى جوف الغرفة
أخذت تتراخى رويدا.

لم تكن تنظر إليه وهى تسوى شعرها وتحس مرارة
فى فمها، وألقت على الغرفة نظرة حائرة، ثم انطلقت

فجأة إلى الخارج، دون كلمة.

وفى غرفتها اعتمدت المائدة بمرفقيها، وراحت تنظر إلى الأشياء المعهودة دون أن ترى شيئاً ماذا حدث؟ لم يكن بمقدورها أن تعرف كانت تحس فى نفسها فراغا يتمدد. ويثقل على صدرها، ونظرت إلى نفسها فى إنكار، كأنها تنظر إلى شيء لا يمت لها بصلة، وتلمّست شفيتها، وحلمتى تدييها من خارج الرداء، بأطراف الأصابع. لا شيء. ستتجنب الآن على الغالب ولدا. لكنها لا تشعر بالندم ولا الإثم. ليس لزوجها، فيما تحس، أى حق عليها. ودون أن تعطى للإحساس وضوح الفكرة، وتحديدها، كانت تعرف ذلك. ولكن هذا الذى حدث؟ لماذا هى مُرّة وسأمانة؟ أكان معها - هذا الولد - جابر؟ هذه الضحكات. وهذا الجنون فى يديه، وفى أطرافه.

وطفا فى نفسها الضجر، وشعرت بشيء فى يدها، ففتحت أصابعها المتقبضة. علبة الكبريت الصغيرة الحمراء. ونظرت إليها نظرة جامدة. وأوقدت فى بطاء عودا منها، ولم تجد فى نفسها أكثر من ذلك الجهد، فراحت ترقب العود فى يدها والنار الصغيرة تزحف وتتراقص.

عليه، ولسعت النار أصابعها. فألقت بها إلى الأرض في احتدام مفاجئ، وسحقتها بقدمها في غيظ. وبحركة سريعة أخذت تعمل في موقد الجاز، وأقبلت على عملها الذي نسيته، عملها الجاد تغرق فيه فراغها واختناقها، وهذا الجسد المتألم عليها. وضحكت فجأة. ضحكته المريرة القصيرة. كأنها تعلمتها منه.

أما هو فكان يرتدى ملابس به ويتنفس في جهد، وخوابره مشتتة. وابتسم ابتسامة جافة. ألم ينقذها؟ لكنه كان صادقا في البدء. كان يريد لها، وكان يريد معها مع ذلك أن تتغلب على حظها السيئ.

لو أنه - هو - تزوجها؟ لا. لا. فليم يفكر؟ انه مضطرب. ليس في حياتهما شيء مشترك غير الوحشة. والوحشة لن تخلق زواجا ناجحا. سوف تنجب ولدا إذن. مثل فلفل؟ ذكي وجميل لكنه قدر ومضيع. يقضى حياته بين هذه الزرائب. ومن يدري؟ قد ينسحق قلبه أيضا تحت نظرة لا مبالية من عيني زرقاوين، يظللها شعر أشقر.

وانتبه إلى نفسه يهتم في غيظ، وهو يسير على حافة التربة، متجها إلى القهوة بالعادة. وكانت الشمس قد

توارت خلف السحب المنخفضة التي انحطت من السماء وانزلت عليها بسرعة، تدفعها ريح قوية مفاجئة. وأمواج الترعة الصغيرة تتلاحق، والمراكب الضخمة قد طوت شُرْعها وتركت التيار المندفع مع الريح يجذبها عبر الجسر المفتوح، وصواريها ناحلة عارية ومحدبة، كأنها جثث منقلبة لطيور بحرية ميتة انطوت أجنحتها تحتها وارتفعت سيقانها الهزيلة الطويلة المعوجة تشق السماء، والريح تدفعها إلى مصير غير معروف. والمراكبية بأجسامهم السوداء يجرون تتلاحق خطاهم على حواف مراكبهم، وهم يضغطون على عصيهم الطويلة يفوصون بها في طين الترعة، فتجري المراكب تحت أقدامهم، وخرق هدومهم الباهتة يضربها الهواء في عنف، كأنهم مع ذلك في صورة فرعونية منحوتة على معبد قديم. صورة حجرية لا هواء فيها.

والمنازل إلى جانبه تبدو كئيبة تحت السماء المنخفضة، وشرقاتها الخشبية كأنما تهم أن تهوى إلى الأرض، من المضض.

وفي صيحة حادة مفاجئة، دهش لها هو نفسه:

- يا عم متولى، فيه طاولة فاضيه؟ هات لنا طاولة
إعمل معروف، بسرعة شوية وحياتك.

وراح يرمى النرد مرة أخرى مع أحد الزملاء.. وهو
يعود يندمج فى القهوة، ويفنى فى زهول دخانها المنعقد.
والمواقد المتأججة تنز، والراديو يزأر فى موسيقى شرسة،
والمكان يسبح فى ضبابة معلقة من قرقرة النرجيلة وقهقهة
الحشاشين، وأقراص الطاولة تقرقع وتصطفق. وكانت
صرخات الصبية فى الشارع تصل إليه مختلطة بزقزقة
حادّة مرتفعة من العصافير التي تتواثب وتضطرب فى
قمم الأشجار على التربة، خائفة من الرياح.

جهار دوبيا شيش. وقهقهة وقسم بأغلظ الأيمان، ثم
قرقرة النرجيلة الطويلة المتأنية تصل إليه من خلال الأزيز
المتقد وضجيج المذيع، وهو يفقد العالم. ويفقد نفسه فى
غيبوبة غائمة من العتمة والفحيح، والطنين يتفجر فى
قهقهة طويلة تقرقع وتدوى وتصرخ وتضطرب مع
العصافير فى الشجر.

- الف قبلة.

حيطان عاليه

وقف على الباب، فى الطريق الضيقة بين مخازن
القطن. ومزقة من سماء الغروب الباهتة معلقة من فوقه،
من بعيد.

كان قد حى زملاءه الذين انصرفوا من قبل إلى
شئونهم. وكأنه يتردد إذ يترك يومه الطويل الممل من
الكتابة فى دفاتر حسابات المخزن، ويهم بالعودة،
وخطواته تنقله من حياة إلى حياة.

ضاع فى سيل من الناس يهرولون فى الطريق التى
تجرى إلى جانبها ترعة الحمودية، والمخازن تقفل أبوابها
وخفراؤها يتحققون الأقفال ويتحدثون فى كسل، ويحسون
الليل لما يكد يبدأ.

سحابة مقطعة تترك ذيلها المحمر على كوبرى القبارى،
وعربات الترام تصلصل فى الشارع بين سيارات النقل
المسرعة المكومة بالقطن، والكوبرى يبدو من بعيد لعبة من

الحديد الرقيق تضطرب فوقها الناس والعربات، دون
معنى.

وقف ينتظر الترام، فى حشد من العمال وصغار
الناس، وجوههم قائمة مريدة تضيئها لمعة عابرة إذ
يتركون عمل يومهم ويعودون ينشدون شيئاً من نسيان أو
شيئاً من حياة.

وأحس الميدان تملؤه العربات والدبدبة وطنين الناس،
والسماء تتسع فجأة فوقه فإذا هى فسيحة براح يخامرها
ضوء آخر النهار، وأحس وحدته فى هذا الغمار تنفتح فى
داخله كحفرة، لأنه يعود إلى بيته ولكنه لا ينتظر شيئاً،
فهناك امرأته تقف أمام موقد الجاز فى المطبخ، وسائر
الغرف مظلمة مقفلة، وبنته فى غرفة النوم - مريضة. وفى
البيت خمود وملل رازح. لكن نفسه لا تنزع به مع ذلك إلى
القهوة ولا إلى أصحابه فيها. وهو الليلة لا يكاد يطيق
شيئاً. يعود إذن يقرأ الجريدة ويتعشى وينام، فهو قد
ضاق بيومه كله، ويود لو انتهى منه سريعاً. بل ضاق بكل
شئ وقلبه ينقبض من الضجر والقهر كأنه أضاع شيئاً

عزيزا إليه، أضاعه بلا رجعة.

ومد للكمسارى قرشا فوق أكتاف الناس، والترام
مندفع يهتز، يقطع الشارع الطويل، ونسى نفسه لحظة،
فى زحمة الأجسام المتعبة يفوح منها فى الحيز الضيق
صنان العرق وشغل النهار.

وهو يخط على الباب ولا يرد عليه أحد.

فخط فى شدة وضيق. وألقى بالتحية إلى امرأته
وسأل عن البنت، فأجابته باقتضاب:

- كويسة.

- نائمة والا ايه؟

- مش عارفه، أهى فى السرير.

وجلس على حرف السرير. وطالعه من العتمة وجه
بنته، أسمر منحوفا، مشتت الشعر ضئيلا، هذا الوجه
الصابع الغض وقد تهضمه المرض ونشف ماءه، وعيناها
الكبيرتان تقفان عليه، فى تساؤل، كأنها حيرانة، لا تفهم.
وعلى جبهتها المدورة ندى خفيف من العرق. فوضع ذراعه
حول كتفها الصغيرة وهو ينحنى عليها، وقد در قلبه

بالتحنن، كأنه يعتذر لها من صحته.

وسألها هل أكلت، وماذا تحس الآن؟

ولم تكن هذه الغرفة بالذات مضاءة، فأسلاك النور متعطلة فيها، ولم يتح له أبدا القليل من الفراغ، ولا القليل من النقود، حتى يصلحها.

وامراته تأتي فتقف بالباب هُنيهة، ثوبها قديم ينحسر عن بضعة من صدرها الصغير المرتخي. وإذا اندلاعة من حبه القديم تحرق صدره فجأة.

وقد انقضت خمس سنوات منذ تزوجها، لكنه لم يستطع أبدا أن يستقر إلى حبها. أهي تحبه، هذه المرأة التي تزوجها والتي تقف بالباب، وثوبها الذي كاد يبلى يلف جسمها الصغير الناعم، جسمها اللدن الضيق؟ إنه يعرفه على الأقل، هذا الجسم. يعرف طراوته الغضة، وجلدته المرهفة الحريرية، يعرف رجفته إذ يستجيب له، وحرارته وتقبضه بالنشوة، ويعرف ملاسته واستكانته ووداعته تحت أصابعه الملائمة، ويعرف برده إذ يكون جائعا إلى الحنو، وجائعا إلى رجولته، ونداءه الخائف، من

غير صوت. ويعرف نفرتة أيضاً ورفضه، وانكماشه وانزواءه كحيوان خجول وحشى يدفع عن نفسه، ويقفل أبوابه على ظلامه الداخلى. نعم يعرفه، جسمها، لكنه لا يعرف أبداً ما سر الهوى الذى يعيش فى هذا الجسم. أهنالك هوى، على الإطلاق، يعيش فيه؟ شىء يشبهه، ولو من بعيد، هذا الحريق الذى يأكل نفسه الآن، سعر من التوق إلى الزمالة وإلى الفهم، ونار تشتعل من نسيج النفس وحدها، لا صلة لها بالدماء، حريق من حسه بالوحدة، بأنه مرمى وحده، فى عزلة نهائية، دون أمل فى النجاة.

وهو إنما يطلب من حبه أن تتهدم فيه أسوار هذه الوحدة، ويمضه شعوره أن لا جدوى هناك، فامرأته صامتة وغريبة، أجنبية. وهو وحيد أبداً. وهو يهتم أحياناً أن يهتف بها أن يزعم فيها، لكى تكلمه، لكى تقترب منه، لكى تمد إليه يدها، تفعل شيئاً، أى شىء، يشعره أنه ليس غريباً، هو، ليس شيئاً، هو، آتياً من مكان آخر غير معروف، ليس منقياً ملقى به فى العراء، أنه فى النهاية

ليس وحده، وحده، وحده مقضيا عليه دون خلاص بهذه
الوحدة التي لا تطاق.

لكنه لا يجد مقدرة أن يهتف بها، بل أن يهمس لها.
ويشعر فجأة أن لا طريق إليها، فهي في معزل، لا تُنال،
ويده لن تطولها قط. وحبها لها يأكل نسيج نفسه، لأنه يود
أن يطويها بين ذراعيه، أن يأخذها إلى حضنه قريبة
حميمة كأنها بضعة من قلبه ولحمه، كأنها تنبض في
داخله، ويعرف أن لا سبيل، وتُرمضه معرفته.

وسوف يدوسه القهر، لأنه في كل مرة يعود محبوطا.
ومهما عصرها في لياليه ودعك لحمها إليه، فهي أخرى
ماتزال، غريبة، بعيدة، منفصلة. وهذا الشوق جائع أبدا
لن يعرف الرضا. هذا الشوق الذي لا يعرف أن يسميه،
لكنه هناك، لا يتبدد، لا ينحل.

وها هي ذى تقف بالباب، وحول عينيها حلقات سوداء
من النصب والهم، لعلها هي أيضاً أن تعرف معنى
الوحشة في هذا البيت، موقد الجاز يفح، وأسلاك النور
معطلة، وبناتها مريضة، وهي محبوسة بين هذه الحيطان.

لا يدري. فحتى وحشتها صامته، غريبة عنه، لا طاقة لها به.

وامراته لا تعرف أن تتكلم، أن تعطى لنفسها أصواتا، بل لا تعرف أن تعبر عن نفسها بشيء آخر غير الكلام. مهدورة تماما، كأن نفسها لم تولد أبداً وظلت برعما خشنا خاما مغلقا على عصاراته الكثيفة، لن ينفتح.

- أحضر لك العشا؟

- عندنا ايه؟

- بطاطس ورز.

بطاطس ورز، من طببخ الأمس. هذا الأكل الذي تقدمه له، معجوننا دائما لزجا في الزيت والدمعة. قوام حياته التي ألف طعمها الآن. وهو متعب فجأة مهدود، ولا شهوة له لشيء. لكن فراغا في أحشائه عليه أن يملأه بهذا العجين المطبوخ، كدأبه كل ليلة.

ووضعت له طبقين على السفرة القديمة المغطاة بمفرش أبيض حائل مبقع، وسمعها تعود تتحرك في المطبخ من جديد، أمام موقد الجاز.

- مش حتيجى تتعشى معايا؟

وجاء ردها من المطبخ، وهى تغسل شيئاً فى الحوض.

- ماليش نفس دلوقت، يمكن آكل بعدين. باعمل لك

الشاي، عايز شاي؟

- أه.

من فم مملىء.

وأخذ يحسو شايه الثقيل المسود، وينفث دخان
سيجارتته الهوليود اللاذعة وفمه يعود إلى إلف إحساسات
المساء العادية، يستطعم البطاطس والشاي الخشن المر
ودخان الهوليود على لسانه، لا لذة فيها إلا متعة العادة
القديمة، وسمع بنته تكح من عتمة غرفة النوم، كحة
مؤسسية وهنائة تهتز بجسمها السخن الملقى على الفرش.
وغشاه العالم يضيق حوله وينقبض به، والبيت كالسجن لا
حول له فيه ولا يد له فى شىء.

- البت خدت الدواء؟

وامراته تجيبه، ولهجتها تشى بالمرارة، نعم، ومع ذلك

فها هى كما ترى سخنة، ضعيفة، تكح.

وهى تأتى من المطبخ تجفف يديها فى فوطة مشعثة،
وقد وقعت خصلة من شعرها الأسود اللامع على جانب
جبهتها. وانبتقت فى داخله فجأة شهوة أن يأخذ هذا
الرأس بين يديه، فيغمض عينيها بفمه على ما فيهما من
عتاب، ويمر براحتيه على هذين الخدين فيمحو برقة
خطوط الخيبة والمرارة التى يراها على صفحة وجنتيها،
أن يحتوى ذقنها بين كفيه، وأن يدفن رأسه ووجهه جنب
عنقها، فى تسليم وضراعه لأن تغفو، فما بوسعه شىء،
كأنه حبيب صغير مخيب الأمل.

لكنه ظل على كرسيه، تشعفه شهوته ولا يفعل شيئاً،
غريبة هذه الإندلاعات، كأنهما لم يتزوجا منذ خمس
سنوات، كأن يديه لم تعرفا بعد مسة خديها وملاسة
جسمها كله، وخصب شعرها الناعم الهين بين أصابعه،
كأنه يشتهيها لأول مرة. وترك رغبته تمضى، غير متحققة،
شىء ما فى هذا الوجه المتعب المغلق يحبطه ويصدده،
شىء يبعتها عنه، وهو يوجس منها، كأن فى نفسه ديباً
لا يكاد يستبين من حسه بإثم ما، بذنب غير محدد.

وحفره شيء فاخطف سترته وهب متجها بسرعة إلى الباب، وهو يقول:

- أنا رايع القهوة شوية، يمكن أتأخر بالليل.

صدمه هواء الليل، والشوارع المزدحمة الضيقة بأنوارها الكثيرة توميء، وتبرق وتغمز في داخله فتحات حساسة، كما لو كانت الأنوار وخزات تنخس الجلد الملهب المشدود على جروح ضاربة مفتوحة، والقرام يجرى في الشارع مليئاً بالناس، والباعة والعساكر والسيارات تقبض على هامش وعيه بأصواتها، لكنها ترميه بعيداً، إلى بعد آخر من أبعاد غربته.

ودار بنظره في القهوة فلم يجد أحداً من أصحابه، وهبط ثقل جديد بقلبه إلى أسفل. ألن يجد أحداً يلعب معه الليلة؟ هذه الليلة! لكنه لن يطيق الجلوس هنا وحده بين الناس. لن يطيق. لن يحتمل.

وانفرجت نفسه فقد وجد شخصاً يعرفه هناك، ليس صديقاً بالتأكيد لكنه يعرف هذا الوجه. فقط نسي اسمه. هذا الوجه مألوف إليه، بل مألوف جداً. كأنه يراه كل يوم.

لكنه لا يتذكره مع ذلك. هذا الشعر الأكثر وهذه
النظارات على عينيْن ضيقتين مطفأتين، والجبهة الضيقة
والذقن المنحدر إلى الوراء.

وإذا هذا الوجه القشيف الجهم يبتسم له فجأة، ويقوم
إليه يحييه، واتجه إليه متردداً، يرد التحية.

ثم يقف مرة واحدة، وقد تقبضت المفاجأة بقلبه وأحس
ركبتيه تكادان تتخلعان به. هذا الوجه وجهه، وجهه هو.
كأنه يرى نفسه خارجاً من المرآة، بل من صورة
فتوغرافية مجسمة حية إطارها عرض الحياة نفسه.

وتوقف ذهنه، وأحس أنه لم يعد يفهم شيئاً، ولم يعد
يهتم.

ولكن الآخر دعاه إليه وسلم عليه، وفي عينيْه بريق
خبث، كأنه، هو يفهم. والناس حولهما يلعبون الطاولة
ويدخنون ويلغظون، ويجلسون على كراسيهم فى خمول،
ينظرون إلى الشارع والترام والبنات. كأن شيئاً لم
يحدث. كأنهم هم أيضاً لا يجدون فى الأمر غرابة، ولا
ينكرون شيئاً، أبداً، على الإطلاق.

والجرسون يأتى، والآخر يطلب اثنين قهوة على
الريحة، وطاولة، كذا. دون سؤال. دون تردد. كأنهما
صديقان قديمان. وهو لم يتكلم بعد وقد عقلت المسألة
كلها لسانه، لكن الآخر يسأل عن صحته وكيف الحال؟
فيرد عليه بشكل آلى، وذهنه غائب، وهو يحس ألفة به،
كأنه لم يتركه إلا بالأمس فقط. كأنهما يريان أحدهما
الآخر كل يوم، ويعرفان أحدهما الآخر منذ الطفولة، وقد
تكلمتا فى كل شىء، وعرف أحدهما الآخر ظهرا لبطن،
ولم يعد لديهما جديد يقولانه، فلم تبق إلا الطاولة. نوع من
الألفة الوثيقة الحميمة تربط بينهما، معرفة الشخص
لنفسه.

لكنهما الليلة يلعبان الطاولة على شىء له أهمية وخطر.
والحماس يرتفع فى صدره الآن، ويشعره بحمو جديد غير
مألوف. لابد أن يغلبه الليلة، هذا الآخر. مصيره كله،
بشكل غامض، معلق بلعبته الليلة، لابد، لابد أن يظهر
عليه، أن يغلبه غلبة نهائية، حاسمة، باهرة. والآخر ينظر
إليه من وراء نظاراته، وهذه اللمعة تضئ عينيه، فهو

يعرف أهمية اللعبة، لكنه واثق من نفسه، كل الثقة، هذا الآخر.

وغاظته هذه الثقة من الآخر، وأوغرت صدره، فهو يلعب فى يقظة ودقة وحرص. وينسى القهوة والبيت والشغل، ويفقد الشارع والناس، ولا يبقى أمامه إلا الأقراص تدور وتنتقل وتخبط خشب الطاولة، تخطط مصيره فى حسابها الدقيق. ويداه ترميان النرد وعيناه تتعلقان به وذهنه يعمل فى نور سخن صافٍ وهما يتراقان بنظرات خاطفة وليس بينهما إلا حساب الطاولة يتتابع ويدور سجالا، وفى داخله حس بالعداوة لهذا الآخر الذى يحمل وجهه بل يحمل نفسه أيضاً. عداوة وغربة ومقت. وهما يعرفان أحدهما الآخر حتى نبضة الدم فى غور الشرايين، لكنهما منفصلان وجسمه يقف بينهما، حائطا من الحجر لا ثغرة فيه، مغلقا على سره. حائطا لن تنفتح فيه فجوة. وحياته تدور من داخل الحيطان، حياته بأسرها شىء خاص، لا يهتم به أحد فى الخارج، ولا يعنى أحدا، ولا هذا الغريب.

هذا الغريب الذى يعرف ذلك كله، ولا يوليه أى اهتمام.
بل بارد وقاح، يلعب مالكا زمام أمره، فى هدوء من يعرف
أن الكلمة الأخيرة له. ويسأله الآخر فجأة:

- ازاي البنت النهارده؟

فوقفت يده فجأة وبرق فيه عينيه، فى موجدة. كأنه
يكايده هذا الآخر يسأله عن بنته المريضة كأنه يتابع
أخبارها يوما بيوم، ويسأله بكل هذه اللامبالاة. وأخذت
عينه رفوف القهوة وقد رصت عليها الأكواب والفناجين
وأوعية الشيشة النظيفة، صفا فوق صف، والصبي يعمل
فى جد بين مواقد الجاز، بلا تعب، والجرسون يصيح من
بعيد واحد مضبوط واثنين سحب عندك، وعاد يهم
بمواصلة اللعب لولا أن شلته المباغته، دفعة واحدة،
وأحس الأرض تميد من تحته، والقهوة والناس فى
مقاعدهم تتألب عليه، كهزة من موج ثقيل. وخسأ بصره
دون أن يتحكم فيه، ثم عاد ينظر، مشدودا إلى النظر بقوة
لا تدفع. لم يكد يصدق عينيه. لكنها هناك. لاشك فى ذلك.
وهو لا يحلم، لا يهذى، بل يرى بعينيه. والناس أيضاً

يرونها دون اهتمام، ثم يعودون لشئونهم، كأنها لا هي
بالجديد عليهم ولا شيء غريبا في الأمر كله. وعاد يختلس
نظرة إلى الآخر فإذا هو قد أشعل سيجارة هوليود وأخذ
ينفث دخانها وهو ينظر إليه، في هدوء، كأن الأمر لا
يعنيه، بل لا يعنى أحدا. وهو يقول مشيرا إليها، في ركن
القهوة تحت صفوف الأكواب والفناجين وأوعية الشيشة
المرصوفة، جنب مواقد الجاز، بنته، عارية تماما على
سريرها، تحت العيون جميعا، مكشوفة في وسط الناس.

— لسه تعبانه برضه. معلىش بكره تصحى.

والجرسون يدور من جانبها، يؤدي عمله ولا يكاد
يلتفت إليها، وهى عريانة، يلقي إليها بنظرة لا مبالية، وهو
يطأ جانبا من ملاءة السرير البيضاء التى تقع من حرف
الفراش على بلاط القهوة، كأنها هناك من زمن طويل.

والأمر على ذلك غريب، غريب، لا يصدق، جنونى،
لكنها هناك، ها هى ذى، ليس هناك تخيل ولا هذيان،
وهو صاح كل الصحوة، وكل شيء حوله مجسم ملموس،
وباب القهوة مفتوح على الشارع، مفتوح على النور

والضجة بالخارج، والترام ملء يجرى بالناس، والمارة والركاب يستطيعون أن يروها على سريرها. والباعة والعساكر يروحون ويغدون، والبنت على فرشتها، تحت الضوء القاسى، بين ضبابات الدخان، عارية تماما، بجسمها النحيل الضيق الطفلى، وقد التصقت خصلة من شعرها الخفيف بجبهتها المدورة المنداة من العرق، وعيناها تتجهان إليه، من عريها التام، فى حيرة من الألم والمرض، عارية منهوكة ملقاة، ذراعاها ممدتان إلى جانبها، لا حياة فيهما وساقاها الطفليتان الطويلتان لا شىء يغطيها، وقد برزت ركبتيها فى جفاف، وعضلات فخذيها ضامرة نحيلة، وضلوعها وعظام جنبها ناتئة واضحة من الهزال، تحت الجلد الباهت المشدود، وزغب المراهقة الأولى لا يكاد يخفى تلك الفتحة البذيئة تحت هذا البطن الهابط الأجوف. وباب القهوة مفتوح مع ذلك على أنوار الشارع، والناس مشغولون بلعبهم وتدخينهم وحديثهم، يغطون ويتثابرون من ملل قعدتهم الطويلة.

وأحس خدرا فى جسمه يشله عن الحركة. الناس كلهم

يقبلون هذا الأمر كأنه يدخل فى سياق المجرى العادى
للأمر. وهو أيضاً، بشكل لا يصدق، كأنه يعيش فى
مستوى آخر من الحياة، يقبله، ويسلم به.

والآخر يرمى النرد، وهو لما يكد يتوقف لحظة واحدة.
واستمرت اللعبة على بعد خطوات من السرير الذى
ينصب عليه النور الخشن، وعلى تلك الجثة العارية الحية
تحقق إليه بعينيها الوادعتين البريئتين، لا استغراب فيهما
ولا قلق، بل حيرة من الوجد وتساؤل صابر معلق.

والآخر تلمع عيناه فى ثقة.

لكنه أيضاً قد تجمد فى نفسه العزم على النصر،
وتحجرت إرادته فى عناد، وهو يشعر بالخطر يحدق به
من كل ناحية، من هذا الوجه، الذى يعرفه، لكنه نسي
اسمه، وهذه القهوة بموائدها التى يستلقى بينها سرير
بنته العارية المريضة، كأن البنت، بشكل غير واضح، غير
واضح أبداً، موضوع لعبته الليلة، الأمر يتعلق بها بشكل
أو آخر.

واندلعت فى نفسه شهوة فى أن يحيط هذا الصدر

الضيق الناحل، صدر بنته الطفلى لم تكْد تنبثق فى
حلمتيه الصغيرتين عصارة المراهقة الخام، يحيطه
بذراعيه ويدفن رأسه فيه، كأن فيها شيئاً من امرأته التى
تركها بالبيت من زمن طويل، وأن يرتضى عليها فيخفيها
عن هذا العالم فى عتمة حبه لها، أن يهب هذا الجسم
العارى المريض صحته وقوته، وحياته كلها، أن يكفر، نعم
يكفر بكل ماء حياته عن ذنبه الذى لا يعرفه الآن، ولا وقت
لديه يفكر فيه، ولكنه مسئول بشكل ما عن مرضها وعريها
وانكشافها للضوء الصلب الجاف الذى يسقط عليها بكل
ثقله فيطوؤها وينوء بها، ويشلها، وتلج به رغبتة أن
يستغفرها، بنته، أن يبكى على حرف سريرها، على طرف
قدميها الصغيرتين البارزة عظامهما فى نحول رقيق، وأن
يبرها ويعوضها، بل يضحى بنفسه من أجلها، نعم
يضحى بنفسه، فهذا هو المطلوب منه. لا أكثر ولا أقل،
حتى تأنس من هذه الحيرة التى تطل من عينيها، حتى
تستريح وتتغطى، وتبتسم.

لكن الناس ينظرون إليها كما لو كانت شيئاً قد ألقوا

رؤيته، ويستمرون في شأنهم. وهو يشعر بما يقهره على استئناف لعبته، فها هو الآخر ينتظره ويلعب معه كأن الأمر كله غير مسل على الإطلاق، فليس هناك نصر ولا غلبة. واللعبة دائرة.

وكان الليل هادئاً وهو يرجع إلى البيت، والنجوم ترمقه من بين سطوح المنازل، والحيطان ترتفع على جانبيه، صامته في كبر، والأنوار قد أنطفأت في النوافذ، والأحجار مقفلة على الحيوانات التي تنبض وتنفس وتمور خلفها، مسدودة، مصمتة. والتعب يتفتر بجسمه، ولا هدنة هناك، وإنما هو الشوق ينزع به إلى الدفء يتلمسه من جسم امرأته في الليل، حتى الصباح، وقد عاد لا يدفعه إلا الرهق حتى يأوى إلى قطعة من الأرض ألفها ويؤوب إلى حضن أنثاه، ينشد ليلة راحة، حتى الصباح.

أَبُونَا نُوَمَا

كانت ليلة خريفية من بابه، القمر مشرق في سماء
الصعيد، والصحراء تئن فيها الريح والدير يبدو بأسواره
الضخمة ومنكبيه الكبيرين، نصفه غارق في الظلمة
ونصفه متوهج بنيران القمر البيضاء، كحيوان خرافي من
رؤيا يوحنا. وكان أحد الرهبان يطوف على السور
العريض، للحراسة، معلقاً إلى كتفه بندقية عتيقة، حتى
إذا وصل إلى القبة الكبيرة جلس تحتها، مستنداً إلى
الليل في العتمة والنجوم القليلة تلمع بعيداً عن القمر في
حجر السماء الحريري. وثم عواء ذئب يسرى بين الرمال.
وعلى مبعدة من البناء الضخم تتناثر أبنية صغيرة
قليلة متداعية، يتكوم معظمها في صمت. مهجورة. على
أن النور يشع من صومعتين متجاورتين منها، باهتاً في
ضوء القمر.

وبين الدير الشامخ وبين هذه الأبنية المبهمة كالمقابر

تتخذ الحجارة والأنقاض أشكالاً غريبة في الليل المقمر،
كأنها أجسام متصلبة في كابوس، ترمى بذراعيها
متشنجة، فاعرة أفواهها بلا صوت. وثم جماجم قديمة
مرمية، بيضاء من طول التعرض للشمس، تبتسم أبدأً عن
نواجذها وعن عيونها المفتوحة بلا راحة.

كانت الذئاب الضارية، في القديم، تقف على أبواب
هذه الصوامع في خشوع، لتحرس سكانها القديسين.
وكان الرهبان يقبضون فيها أيام التجربة على الأرض.
في وحدة مباركة بالروح. لكن الرهبان هجروا هذه
الصوامع شيئاً فشيئاً، وهجرت الذئاب هذه الناحية من
الصحراء. أما البذور التي ألقاها الزارع الصالح فلم
تهلك كلها في الرمال والصخور. بل نمت وترعرعت منها
نبتة طيبة أو اثنتان، وها الضوء الأصفر ما يزال يشع من
هاتين الصومعتين، في انتظار ملكوت السموات، في هذا
السفح الموحش، المهجور إلا من الثعابين، والثعالب التي
تأتى أحيانا فتقف على الباب بهدوء وتمضي وهي تقرقر
بأسنانها.

وأبونا توما وأبونا متى لا يفتان يصليان، ويترنمان
بكلمات الله وتسابيح الآباء والقديسين. كانا يذهبان في
الأعياد إلى كنيسة الدير، ثم يعودان محملين بزاز روحى
من التقوى، ويقف مملوءة بالخبز الجاف يأكلانه على
مادر السنة مبللاً بالماء الذى ينتحانه بأنفسها من البئر
فى صحن الدير - كانا يعيشان فى عزلة النساك
الأقدمين - ثم يتناولان القريان المقدس وينالان بركة الأب
الرئيس.

وكان أبونا توما يرجع بكمية كبيرة من الورق السميك
الأصفر، وحزمة من بوص الغاب للكتابة، وزجاجة كبيرة
من الحبر الأسود ومثلها من الحبر الأحمر. فقد كان
ناسخاً يقضى أيامه ولياليه - بعد أن يفرغ من قراءة
الكتاب وأداء اللوات والترنم بالمزامير التسابيح - فى
نسخ الكتب المقدسة والأشعار التى قيلت فى تمجيد
الحمل الوديع وتقديس أم النور، وفى زخرفة الحواشى
بالرسوم الطاهرة، وتدوين سير الشهداء والقديسين. وكان
يحب أن يرسم العذراء وعلى ذراعها الطفل الالهى، وحول

رأسيهما هالات من النور بالحبر الأحمر، تحيطهما
الغصون المتشابكة وأوراق الشجر والزهور المستديرة
الحمراء، كأنها تترنم باسم القدوس.

أما أبونا متى فكان يعود وملء يديه سعف النخل
وخيوط الكتان والخوض والإبر ونحوها من أدوات خصف
القفف وصناعة الأقفاص. فقد كان بعد أن يؤدي واجباته
الروحية كلها يبارك المواهب المتواضعة التي منحها إياه
الرب يسوع، يعمل بيديه في ابتهاج، مقلداً النجار الإلهي،
مترنماً بالتسابيح، ليعود في العيد التالي إلى الدير وعلى
كتفيه وملء يديه السلال المجدولة بشكل ساذج وجميل
والأقفاص الخشبية من سعف النخل في غاية القوة
والرقة، والقفف المخصوفة في دوائر تامة الاستدارة.

وعلى هذا النحو كان أبونا توما من ناحيته يعبر أيامه
ولياليه، حالماً في غيبوبة من الكلمات المقدسة، يرددها
بصوت خفيض وهو ينسخ في غيامه من جمال يسوع
وطهر العذراء، ونعيم الملكوت في أورشليم الآتية.

أما أبونا متى فكانت صومعته فسيحة ومنيرة في

سقفها فتحة واسعة يرى منها السماء والسحب والبيضاء
الطائشة تطفو على أمواج الضوء الزرقاء، وتلمع فيها
نجوم المساء وهو يخصف ويسبح، في صوت جهير.

كم مرة توجه الراهبان فيها إلى الكنيسة في العيد،
وصليا في الهيكل، واعترافا بخطاياهما؟ لا أحد يدرى
على وجه التحقيق. لقد امتلأت مكتبة الدير بالكتب الجميلة
التي نسخها الأب توما، وامتلات الأزوقة والصوامع
بالسلاسل والققف، وما من راهب في الدير إلا وهو يذكر
أنه عندما جاء الدير لأول مرة، كان الراهبان في
صومعتيهما المنعزلتين، لا هما بالشابين ولا بالشيخين،
كأنهما لا يعرفان معنى الزمن.

وكانا يتناديان أحيانا من وراء جدران صومعتيهما،
ليذكرا مجد الرب أو يتعجبا لآياته التي يظهرها ليل نهار
لأعيننا الخاطئة، نقاوة القمر أو رقة السماء أو لطف
النسيم في أول الليل، بعد يوم حار.

وما يزالان يعملان، هذا يخصف ويجدل، وذاك ينسخ
ويرسم، سعيدين بالروح، ظافرين بالجسد متغلبين على

الشیطان، ببركة یسوع المصلوب، ونعمة الأم المقدسة.
وفى تلك الليلة من بابة كان أبونا توما يفكر فى
الشیطان. ألم يدعُ الآباء القديسيون إلى التفكير فى
العدو، حتى نتخذ منه حذرنا ونعد له عدتنا، ونقهره
بالروح؟ وذكر الأب توما كيف كان الشیطان يجب الرب
إلها فى البرية. لا تجرب الرب إلهك لا تجرب الرب إلهك.
ولسوف يتغلب رب الجنود على قوات الشر، ويحبس
الشیطان ألف سنة، يسود فيها السلام، فى أورشلیم
المجيدة الثانية. ألف سنة؟ كان ذهنه مضطربا
الليلة. وبعد هذه الألف؟ لم یکن یذكر تماماً ماذا یحدث
بعد هذه الألف سنة. وعیناه مظلمتان قليلا لأنه كان یرى
أورشلیم الماضیة، أيام نزل الرب أرضنا هذه. فى القبور
القذرة الموحشة یهیم بینها من مسَّهم الشیطان، أولئك
التعساء یجرون بین المقابر وهم یمزقون شعورهم، مهلهلین
بلا طعام ولا مأوى، بأعین متألقة وأصوات مبحوحة،
یعوون إلى الرب یسوع، إذا یمر على المقابر، أن یخلصهم
من الشریر.

وكان يتحنن عليهم المخلص، ويأمر الشيطان فيحل في
قطعان من الخنازير التي تنطلق فجأة من على الجرف،
وهي تعوى بدورها وعلى أشداقها الدم والزبد، تتدافع إلى
البحر وتسقط في الماء وهي تشرق وتغوص، وهي تقبع
وتعوى وتموء. وهزته قشعريرة وهو ينظر إلى الظلال
المحمرة التي تلقيها الشمعة على جدار صومعته. هذه
الظلال التي عمرت ليالى حياته تبدو له هذه الليلة غريبة.
وهو يفكر في النباح والجوع ذى الأعين المتألمة،
والشياطين تأتي لترقد في الظلمة خارج صومعته، وترسل
العواء عالياً يمزق الليل. لماذا الرب يتركها؟ هذه
الشياطين تعوى في الليل، وتطأ الروح بأقدام من الشوك.
تطلق الدماء والرغوة إلى الأشداق ثم تختنق في الماء بعد
أن تسقط من الجرف. لماذا الرب يتركها؟ لا تجرب الرب
إلهك. مكتوب في الكتاب لا تجرب الرب إلهك.

كان الراهب خائفاً، وكانت الريح تزف. وأدرك أنه
يعانى تجربة ليست من الله. فمتى يهدأ قلبه ومتى يتقوى
بالروح؟

ركع وراح يصلى ويستغفر الأب، مغمضاً عينيه،
والتهب وجهه كأنه شرب خمرةً شريرةً والصلاة زادته
الليلة حمى وقلقا وجوعاً إلى الله. جوعاً لعل الشيطان
نفسه فتحه فى أحشائه. إنه لا يدري. إنه حزين هذه
الليلة، وضعيف بالقلب، كأنه طفل فى لفائف أمه.

وأمسك قلمه فجأة وأقبل على الورق، يكتب رسالة من
الرسول، معقدة لم يكدر يفهم لها معنى، على الرغم من أنه
يحفظها عن ظهر قلب. ثم توقف. إنه لم يرسم علامة
الصليب على وجهه عندما انتهى من صلاته، وأقبل على
كتابته. ولأول مرة فى حياته. فرسمها فى تعجل ويداه
ترتشان. هذه الليلة لا تنتهى.

واستحال خطه رويداً إلى تلك الكتابة الجميلة التى ملأ
بها مكتبة الدير، وهو يحلم من غير أن يحس - رسالة
إلى أهل تسالونيكى، إلى رومية، إلى أهل كورنثوس،
وأفسس، هذه المدن التى ما يزال يعيش فيها الراهب، إذ
لا يعرف غيرها. مدن واسعة وثنية فخمة فيها قصور من
الرخام الأبيض الناعم، والحمام فى الشجر، ورجال

ضالون يهرولون في شئونهم الدنيوية، والنساء في ثياب
حريرية هفافة. وقد نسي كل شيء عن أزمة ليلته، وعن
تجربته. وكانت الرياح تقصف بالخارج.

ثم سمعها فجأة، تتأوه في أناتٍ عميقة ممتدة مع
الريح، متهدجة في شكاة:

- يابونا توما.....بونا توما.....

ورفع رأسه في دهشة كاملة. مَنْ تلك التي تناديه بهذه
اللهجة؟ وهجم عليه الخوف دفعة واحدة. وهبت الزويدة
تنز في نفسه بعنفها كله. هذه التي تهتف باسمه في تلك
النبرة الطويلة الدافئة المرتعشة، يا يسوع، من هي؟
وأشرق الجواب في ذهنه فجأة، كترياق ينصب في
روحه المظلمة المسمومة، إنه متى، هذا الأبله بجواره،
يناديه والريح تحمل إليه النداء فتغير من نبراته. الأحمق.
وخرج من صومعته، وعصفت الريح بثيابه السوداء
الفضفاضة، وهو يصيح:

- واى يابونا متى. عم بتنادم ليه؟

وجاءه الرد في صيحة مندهشة مبغوتة:

- بسم الأب والابن والروح القدس. بتجول إيه يابونا
توما؟

- واه عم بتنادم علىّ ليه؟

وسمع الإجابة الضاحكة:

- جَبْر يابونا جبر. بنادم ليه؟ دى الريح ياواه. وأنا
هاعيط عليك الساعة دى ليه يا خوى؟
- بَّة. الريح.

إذن فهى الريح من أول الأمر لآخره. وليس ثم نداء.
وامتعض وحنق على نفسه، وهذا الأبله متى يرد عليه
هازناً. وهو يضرب الحصى بقدميه راجعا. والريح تضرب
ثيابه السوداء الفضفاضة.

- جَبْر يابوشنودة جبر. دتارى سرك باتع صح.

وهو طفل فى الصعيد فى قريته البعيدة. وسمع أمه
من أمام الفرن، ذات صباح، وقد رأت عقرباً ضخمة
شائلة تنطلق نحوها من تحت أقراص الجلة الجافة، فى
سرعة عمياء. وصاحت أمه بالقديس أبو شنوده. شفيعها
إذ يلم بها الخطر أن يوقف هذا الفرع الدايم، صارخة

بأعلى صوتها كأنما تريد أن يسمعها في السماء، ومن
حرارة ذعرها.

– وجَّفه يابوشنوده وجَّف.

وسمع الراهب صرختها في جنبات طفولته، وهو يعود
إلى صومعته. وقد وقفت العقرب كأنما الصرخة العالية
سمَّرتها بالأرض، كأنما القديس شلَّها على الفور ولم
تتمالك الأم في طيبة قلبها أن تهتف، وهي تهبط على
العقرب بأقرب شيء وقعت عليه يدها، قرصاً جافاً من
الجلة، فتقتلها، وينكسر القرص:

– جبر يا بوشنوده جبر.. دتارى سرك باتع صح.

ودخل صومعته فأحس ريح الليل تتسلل معه، وتعصف
بذبالة شمعته. كانت أمه تقول إذ يأتى ليل الخريف:

– بابيه خش واجفل الدرايه.

وكانوا يُحكمون إغلاق الباب والنوافذ جميعاً، ويقعد
جَارَ أمه بجنب الفرن، وإناء العدس الأصفر يغلى ويملاً
المكان بعبق لذيذ، بين الدجاجات النائمة التي تنق في
أحلامها، والماعز، والجاموسة في طرف القاعة تجتر

طعامها وهى ناعسة فى كسل، تنبعث عن جسمها الضخم
وروثها ودفئها رائحة حريفة ثقيلة طيبة.

ومد يده يتلمس دفء الفرن من الجهة الشرقية، ووقعت
يده على فراغ. ففرك عينيه المتعبتين وهو ينظر إلى أكوام
الورق والزجاجات القذرة من الحبر يكسوها الرمل الناعم
الجاف، وأعواد الغاب تحت السكينة التى يبرى بها
أقلامه.

هذه الذكريات الباطلة. والخوف والوهم والأكاذيب التى
فى القلب، وعلى شفثيه كالنار المتقدة.
ومازلنا فى أول الليل.

وركع يصلى والشمعة تذرف آخر نورها، وطوته
الصلاة بين ذراعيها، حارة متصاعدة تتدافع. ومشاعره
تتدفق وتهضب. المشاعر المكومة المحبوسة تنبجس
وتنفجر، فى كلمات من الحمى. يدعو إلهه ان يخلصه، أن
يمد له يد معونته. وإلهه لا يسمعه.

يا يسوع. إنه فقد صوابه هذه الليلة. وسحابة شريرة
أغرقت روحه بالخيالات. هذا النداء الشهى. هذا النداء

الشهى. كم مرة ينبعث له. له وحده. يدعو. مرة من
الظلمة فى ركن الصومعة، خافتا متآمرا يقظا فى الليل.
ومرة من الريح فى الخارج، ضاحكاً معابثاً، ناعماً بتلك
النعومة اللاعبة المرحة، يرتعش لها جسده، كعرشة الموت،
ومرة فى صوت أغن يشكو ويعاتب. كيف يصده؟ كيف
ينحيه؟ ويأتيه النداء ضارعا فى لهفة كأنه يموت من
الشوق ثم يصمت، لكى يراوده فجأة فى أنين مسترحم
عميق. ذلك الأنين تهتز له أحشاؤه، فى رعدة تتنزى
كانبثاقة الحياة نفسها فى لعازر القائم من الأموات.

والرب نساها. ويسوع الذى عرف آلام المجدلية فرحمها
وغفر لها، لم لا يصغى لندائه الآن؟ لم لا يسمع له وهو
يقرع بابه بانسحاق؟ وكم من مرة وضع حول رأسه هالة
من النور، بالحبر الأحمر الجميل، وكم من مرة أنشده
التسابيح والأشعار. فلماذا لا يراعى دموعه، الآن، ويطرده
عنه الروح الشرير؟

وارتفعت إلى عينيه سحابة باردة من الدموع ثم ذابت
فى حرارة من الملح المؤلم. لكن الثقل الذى يفدح صدره لم

يرتفع. والدموع لم تنهل بعد. وهناك شيء ما. جائع.
جائع. ينهش قلبه وينز في دمائه، ويلقى به في نوبات
متعاقبة من القشعريرة والسخونة، تلفحه وتكتسحه. وهو
يصلى كأنه يحتفر حفراً في أغوار نفسه، ويتكسر كزنه
في زلزال، والصور الشريرة تقترب وتحوم حوله، ولا يجد
رحمة، وربّه قد هجره في محنته، وتركه يصارع العدو
بالأيدي العارية.

– أبونا توما.. توما.. توما...

تدعوه وتحتضنه بين ذراعين حريريتين، وتقبله على
شفتيه بقبلة هادئة ندية كلمس زهرة غضة. يا رباه. هذه
الطراوة. هذا الدفء اللين.
وضم حول صدره الناحل ذراعيه. لكن نفسه مثلوجة
صادية.

كلا يا الهى. كلا. هذا الشيطان، يجربه.

وانحدر رأسه على صدره. ونظر إلى قلمه على الأرض
في يأس. وراحت يده تتلمس شيئاً بين الورق كأنها تبحث
عن شيء تعرفه، حتى وجد صليباً فضياً صغيراً كان قد

أهداه إياه رئيس الدير. ونظر إلى الصليب قليلاً بعينين
شاردتين. وقربه من شفّتيه المرتجفتين ببطء. رويداً
وشفتاه يسعفهما شوق ممضٍ كالملح. وفي حركة حادة
مفاجئة اكتسح الصليب بشفّتيه وقبله في عنف مر، قبلة
متحطمة مهروسة، مرة ومرة وأخرى، ثم دفن رأسه بين
ذراعيه بقوة. واهتز جسمه وتساقطت الدموع من عينيه
أخيراً، حارة منتزعة كفلذٍ ممزعة من روحه مازال يقطر
منها الدم. وهو يشهق شهقات عميقة خشنة، خاف لها هو
نفسه، ويرتعش.

ولفظت الشمعة آخر أنفاسها، وتركته في ظلمته يبكي.
كلا كلا إنه يريد أن يعيش مع المسيح، يريد أن يحيا في
الكلمة المقدسة مع الله. لا شهوة له في العالم الباطل. لا
يريد إلا يسوع. الذي أحب وتآلم، وغفر لمن أحبوا وتآلموا.
امح من قلبي يا إلهي خطيئتي واغفر معاصي، روحاً
مستقيماً جدد فيّ يا أله، وقلباً نقياً اخلق في داخلي.

وهذا نشيجه رويداً واستند إلى جدار صومعته
المظلمة، من غير أن يفتح عينيه، واستسلم لهذا الضنى

العذب الذى يملأ روحه الآن. هذه الغفوة الكئيبة الممتعة،
وهو يهمهم شبه نائم بترنيمة قديمة حزينة عن آلام
المصلوب ودموع العذراء الواقفة تحت الصليب.

- يابونا توما.. توما..

فى صيحة مُحبة. صيحة حبيب قديم وجدده نائماً بعد
أن بكى. فضمه إلى حضنه، كأنها أمه تطايبه. وأراد
الرجل أن يريح روحه الجريح بين الذراعين الناعمتين.
وكان النداء ينبعث إليه خافتاً متكرراً لا يستكين إلى
صمت، من الأرض ومن السماء ومن دماؤه التى تنز
بالتعب الساخن. والنداء يتعلق بعنقه فى ارتعاش ويدعوه.
وخرج إلى السفح ينظر مرة أخرى إلى السماء، وإلى
الدير الكبير، وتنهد فى سأم وصبر. هذه الليلة. هذه الليلة
التى لا تنتهى.

لكن لا أبداً لا شك هذه المرة. إنه مستى يناديه. هذا
الصوت مقبل من ناحيته ليس ثم شك.

ولم يجب على النداء هذه المرة، بل تسلل إلى الصومعة
المجاورة فى خبث ساذج، ووقف بالقرب من بابها.

وانبعث إليه النداء من داخل الصومعة.

قفز إلى الباب. ووجد زميله ساهراً في عبادة الرب
يخصف سلة كبيرة من جدائل صفراء وخصراء، وهو
ينغض برأسه، ويترنم شبه ناعس، وضوء القمر ينير
صومعته. نظر إليه برهة ثم قال بصوت واثق، هادئ، من
التهديد.

- أبونا متى. إنت كنت عم بتنادى المرة دى.

وكان الراهب الصالح لم يشعر بعد بوجود زميله على
الباب، فانتفض بذعر، والتفت يرسم علامة الصليب.

- بسم الآب والابن والروح القدس، مالك يا بونا توما
ياخوي؟ جرى لك إيه الليلة دى؟ روح صلى يا بونا، أنا
ناديتك يا حى؟ كلمة مسيحية ما ناديتك الليلة، روح صلى
وارشم الصليب على وشك. واطرد الشرير عنك يا بونا.

يصلى؟ يطرد الشرير؟

وقف بالباب صامتاً، ينظر إلى زميله، والشك يعتصره،
والغضب يغمر أحشاءه بالدم وهو يسمعه يقول كلاماً،
مسيحياً، كثيراً، عن حيل الشرير ومقدرة الرب يسوع،

عن التجارب وضعف الإنسان. لكنه لا يسمع شيئاً غير
الريح فى داخله، ونفسه تخرج عنه إلى الليل كقطيع
ممسوس من الخنازير تندفع إلى الجرف وهى تعوى
وتصأى.

ودار فجأة بلا كلمة، ذرع السفح إلى صومعته، وهو لا
يرى ولا يسمع، ومسح شفتيه الجافتين.
انحدر القمر أخيراً نحو الغروب مُتعباً قبل مطلع
الفجر، يلقي بأشعته الشاحبة الاحمرار وظلاله الطويلة
عبر الصحراء وعلى البناء الكبير بقبابه المتتابعة، وقد
ضاع فى ظلها الرهاب الحارس، وعلى أنقاض الصوامع
المهجورة، والعظام، والجماجم على السفح.
وكان الأب توما فى صومعته يكتب بلا توقف، يكتب
فى مدّ طويل متصل يرتفع أبداً. لا يفكر وإنما ينسخ
كلمات لا نهاية لها، وجسمه ينبض بالتعب.

كان نائماً، وقلمه فى يده، مستمراً فى حلمه بالكتابة.
وما أبعد هذا النوم عن لياليه السابقة، حينما كان يأوى
إلى الراحة، وهو يحس البر، وأنه أدى واجبه فى محبة

الله. لكنه الآن لا يستريح. بل عليه أن يكتب في نومه بلا توقف كأن شيئاً يلاحقه، وهو مطحون، وعظامه تنز بالانحطام.

- توما.. بونا توما..

كينبوع من العسل واللبن، ينفجر فجأة من صخر.
كقبلة كلمسة من النار، كصرخة هاتفة من اللذة المتطلّبة.
وقفز واقفاً من نومه، في لمح البصر، وقد صفا ذهنه
صفاء باهراً، كل عصب في جسده متوتر كأنه كان ينتظر
هذه الصيحة. كأن شيئاً شده فجأة إلى يقظة قلقة مرهفة
تخز في العظم وتبريه، وهو يختطف السكينة التي يبرى
بها أقلامه ويده تتقبض على كتابه المقدس الصغير بلا
إدراك. ولفحت الريح وجهه، وعصفت الدماء بجسمه
المرتجف، سوف يُخرس هذا الصوت، سوف يخرسه، ولم
تمضِ بعد لحظة واحدة منذ أن استيقظ من نومه. أبدية
من الغضب والعزم.

وتراجع الأب متى عن سلته التي يخصفها، في دهشة،
ووقف نصف وقفة، وصرخ صرخة واحدة يا يسوع وعيناه

مفتوحتان من الذعر والدهشة. وقبض عليه الراهب
وتلمسه بيده، وارتفعت السكين الحادة ثم شقت الهواء
فى عصف وهى تسقط، وغاصت فى الصدر بين الضلعين
اللذين يحميان القلب، وكان كل شىء يسطع.

وعبر بذهن الأب توما، فى خطفة برق، أن رداء الأب
متى ممزق وقديم. ألم يكن الأبله يستطيع أن يرتقه؟ وعنده
كل هذه الإبر وهذا الخيط؟ وخيل إليه أنه يضحك بل
يقهقه بملء صدره، يملأ جنبات العالم بقهقهته.

وتمزق الرداء تماما، وارتفعت السكين ثم هبطت مرة،
مرتين، ومرة أخرى.

وسقط الأب متى على ركبتيه وتفجرت من صدره
الدماء وخرجت من فمه حشرة ممتزجة برغوة من الدم.
وهو ينهج فى النزاع. وانفتح الصدر وتهدلت إلى الخارج
العضلات الدامية ماتزال تنبض وترتعش كأن بها حياة
خاصة.

ورمى توما سكينه وهو يتلمس الصدر المنفتح فى فرح
شرس، ويزح الدماء النازفة بلهفة كأنها الشغف، وهو

يزوم، والدماء تنز في رأسه، ويداه الجافتان الناحلتان
تتلمسان هذه الدماء الحارة الناعمة اللزجة، وهذا الجسد
الآدمى النابض الذى يموت، فى لذة كبيرة. يتحسس
العضلات اللينة المتهدلة التى ترتعش تحت أصابعه
الفائرة، كأنها الرحم المفتوح.

وترامى فى أذنيه نداء قديم كأنه يأتيه من حلم حلو
بعيد:

- أبونا توما.. توما..

وهى تبتعد، بنعومتها ودفئها، بصوتها اللين الحريرى
التمطى. وهو يتلمس الدماء اللزجة واللحم الساخن،
يتغلغل بجمع يده فى الجسم الممزق. وهى تتراجع وتبتعد
فى نغمات أنثوية راضية:

- أبونا توما.. توما..

وعوى الذئب فى الجبل عواء طويلا قويا خائفا، كأن
الفجر لن يطلع أبدا.

فَبِئْسَ الْاَسْفُوطُ

خرجت من الحارة المزدحمة التي كنا نساكن فيها منذ سنين، وحيطانها المتقابلة تغطيها دائما مساحة داكنة الرطوبة صاعدة من الأرض، متموجة الخطوط. والرائحة الثقيلة التي لا تنجاب عنها أبدا وتسطع في آخر النهار، محسوسة. رائحة مياه الغسيل والمسح وبقايا الطبخ وريش الفراخ وقشر السمك التي تصب ويطوح بها من النوافذ والبيبان والسطوح في أى وقت من الليل والنهار على تراب الحارة، فلا يجف الوحل أبداً حتى على الرصيف، ورائحة ما يتركه الأطفال تحت الحيطان عندما يرفعون الجلابية ويقعون فرادى أو جماعات، ويغيبون لحظة عن العالم في نشوة مستغرقة خاصة، ثم يثبون، وينطلقون جريا إلى صراخهم ولعبهم الذي لا ينقطع حتى تلحق بهم أخواتهم البنات الأكبر قليلا يضربنهم على الرأس والكتف لكي يعودوا للبيت.

كنت قد صحت من نومة بعد الظهر المتأخرة، وكنت بالبيجاما القطن وفيها خط مستطيل لامع، وصعدت السلالم القديمة بسياتها الخشبي الذي يلمع سواده من القدم ومس الأيدي. وكان معي «جمهورية افلاطون» وأنا أطل من سور السطح على الحارة التي تتقلب في ضجيجها وروائحها ونداءاتها.

الست سنية زوجة المعلم أبو ذراع العرجي، في البيت المواجه القريب أمامي، من تحت. تطل من النافذة القديمة المفتوحة، بصدرها الثقيل، مكشوفة في قميص النوم الساتان الفضى ناصل النسيج المشغول بدانتيل سوداء. كان صدرها مضغوطا على قاعدة النافذة بلحمه الأسمر الزيتي، أراه من فوق. وجهها يبدو منتفخا، وعيناها ثقيلتان قليلا من نوم بعد الظهر، فأضم بين ساقَي صلابة استدارة غير مقلقة وغير ملحة.

كان آخر نقيق الفراخ في العشة قد خَفَت يتقطع ثم سكت. وما زال على السطح نور السماء الحارة وهواء المساء المبلول، والتفت إلى الباب الخشبي وهو ينفتح،

ومنى تدخل إلى السطح تحمل بمشقة طشت الغسيل
المثقل بملاءات السرير والجلابيب والفساتين وقمصان
النوم الملونة والملابس الداخلية الرجالى البيضاء، مبلولة
ومعصورة وملفوفة على بعضها البعض وفيها ثقل الماء
ورائحة الغسيل والصابون النظيفة الحادة.

أسرعت إليها بلهفة، ووجهى ملئ بالدماء، والبيجاما
الخفيفة تفضحنى على الرغم منى. وقالت بابتسامة خافتة
وعينين فيهما خجل، ومعرفة: «سعيدة» وكان صوتها
صغيرا كأنه صوت قطة. وقلت لها: «عك». حملنا الطشت
الثقيل معا، وسرنا بضع خطوات حريصة متعثرة، جنبا
إلى جنب واصطدمت ساقي بفخذيها الرقيقتين من وراء
الفيستان وأحسست البلولة فيه من ماء الغسيل، وكانت
ركبتيها خشنتين ولونهما أكثر سمرة من ساقيها
المجدولتين ومن قدميها الحافيتين القويتين.. ووضعنا
الطشت على الأرض، ببطء، ونحن نبتسم. وعندما انحنت
مال صدرها المخروطى المتماسك إلى الأمام، تحت
القماش الرطب. وكان وجهها بجانب وجهى وهى تقوم

ناعما جدا ومسحوبا وسمرته مخرجة بلون داكن عند
أعلى عظمتي الخدين البارزين، وشفثاها واسعتين
ونضرتين.

وعندما كانت ذراعاها النحيلتان مرفوعتين، وهى تنشر
الغسيل على الحبل الممدود بين عشة الفراخ وسور
السطح، كان نهذاها الصغيران راسخين، يرتفعان إلى
أعلى فى حركة ثابتة، وكان بطنها هضيماً ومستوى
السطح، كأنها ولد.

وحكى لها عن جمهورية أفلاطون وقلت لها إن الذى
يحكم فيها هم العقلاء والحكماء وليسوا العساكر، وليس
فيها انجليز، وليس فيها حرب، وان الناس يجب أن
يتعلموا الموسيقى ويعزفونها، منذ صغرهم. ولم أشرح لها
معنى الموسيقى. فضحكت وقالت لى إنها تحب أن تتعلم
ضرب العود معى، وأن تغنى وأنا ألعب على العود. وقالت
لى إنها تحب أسمهان جدا وتموت فى أغانيها، وتحب
رجاء عبده أيضاً. وكان شعرها قليلا ومعقوصا وملموما
فى ضفيرة واحدة ومؤخرة عنقها دقيقة وبيضاء قليلا

وفيهما شعيرات سوداء.

كانت تنشر الملابس والملاءات الثقيلة المتقطرة بالماء
بيدين رقيقتين، محمرتين قليلا فى نور المساء، وكانت
ملابسها الداخلية الملونة الخفيفة القماش بمقاسها
الأصغر والفتحات الصغيرة غير المرتوقة فيها، مختلفة عن
ملابس أختها الكبيرة، ومعروفة على الفور وتوجد بينى
وبينها نوعا من المعرفة الحميمة والسر الساذج، دون
خجل.

وقالت لى إنها بعد أن تخلص من نشر الغسيل ستغير
فستانها وتشتري حاجات للعشاء من عم محمد البقال فى
شارع راغب باشا.

ونزلت بعد أن قالت مرة أخرى بصوت خافت فيه
انتظار: سعيده. ولما رأيته تخرج من الحارة، وكنت
أمشى، منذ فترة، على أول الشارع، هبط قلبى واستدرت
من الناحية الأخرى. كانت مع ابن خالها الطويل الغليظ
الشفنتين الذى كان يزورهم كل ليلة تقريبا ويتعشى مع
أخيها.

كنت قد قلت لها: ابن خالك هذا، على فكرة، أين يسكن؟

قالت: في البياصة، بعد شارع ١٢. في بيت ملك، عقبى لك.

قلت: مسافة بعيدة.

قالت: أخى يعمل معه. عند ميكانيكى سيارات فى البياصة، كانت بينه وبين أبى معرفة قديمة.

قلت: والغريبة انه يلعب البلى مع أولاد الحارة الصفار.

قالت: هو هكذا. يحب لعب البلى، مع انه كبير. وضحكت.

وتيقظت غيرتى مرة أخرى، من هذه الضحكة. وكان ابن خالها له عينان مدورتان جاحظتان من محجريهما، ووجه كالعجين المتخمر، أبيض وبه حفر صغيرة من أثر جدري قديم، وشفتاه مملوحتان.

وكانت أختها الكبيرة تزور أمى، وكانت دسمة الجسم طويلة وصدرها يكاد يكون مربعا ووثيقا فى البلوزات

الشفافة الضيقة التي كانت تحب أن تلبسها فتكشف
تحت كتفها القويين عن قميصها الداخلى الأسود اللامع
دائماً. وكانت تسلم على بيدٍ طرية لا عصب فيها، مرمية
كأنها لا عظام فيها. وكانت تعمل فى فابريكة الغزل
والنسيج فى كرموز وتدخل الحارة فى أول المساء بعد
الشغل، وشعرها مفكوك متناثر. وكنت وأنا فى غرفتى
الداخلية التي تطل على المنور، أذاكر الجغرافيا وأحل
مسائل الجبر وأنقل قصائد جبران خليل جبران فى أوراق
صغيرة مُقْتَطعة من فواتير أبى القديمة، أسمع الجارات،
أحياناً، يحكين لأمى انها ماشية مع المهندسين فى
الفابريكة. وكن يسكتن عن الكلام عندما أمر بالفسحة فى
طريقى إلى دورة المياه.

وكان أولاد الحارة الكبار، صبيان البقالين والحلاقين
والسباكين، يقفون مع تلاميذ المدارس الابتدائية الخائبين
وعمال الميكانيكية الذين تسيل فى أيديهم النقود بلا
حساب والذين لا أعرف ماذا يعملون ولا أعرف من هم،
يتجمعون على أول الشارع أمام خرابة يحيط بها سور

من خشب قديم ووراءه أكوام الزبالة الجافة.
وعندما كانت تمر من أمامهم بجسمها الملى الذي
أحس، دائماً، أنه متحرر وغير مكبوت وشبعان بالمتعة
والعمل والخبرة، كانوا يسكتون فجأة وتتجه عيونهم إليها
بحركة واحدة تلقائية، وكنت أعرف ما يفكرون فيه، ولم
يكن لى بينهم أصدقاء، وكانوا لا يهتمون بى.

الحديقة الواسعة المزدهمة خالية كلها، ليس هناك فيها
أحد غيرى. والليل هادئ ومشحون. وأكاد أتعثر وأنا
أهبط بسرعة على الأرض قاتمة الخضرة، بين حشد
أشجار قصيرة ومظلمة أغصانها متقبضة على بعضها
بعضاً، كأنها تتآمر. كانت كل شجرة حولى يقظة
وصامته، أعرف أن فيها خطراً، فلا أجرو أن أمد يدي
لأمسك بها.

وكنت أعرف أنني فى الشلالات، لكننى لم أكن أعرف
مع ذلك هل ركبت ترام الجمر كأم الرمل، وهل هذه
الأرض المشجرة المرتفعة التى أتدحرج عليها، وأكاد
أسقط، فى رأس التين أم فى الشاطبى. وأشجار النخل

الملكى الشاهقة بسيقانها البيضاء المصفورة وتيجانها
الدائرية المفروشة تهتز فى السماء الخفيفة. وأرى خلفها
وقريبة جدا منها أسوارا من الحجر الأحمر المتين وبوابات
عالية مقوسة العقود، وأبراجا غامضة الأركان فيها نوافذ
مستطيلة متقابلة مفتوحة أمام بعضها بعضاً، وتبدو
خلالها زرقة ليس فيها نجوم، وأسأل نفسى هل هذه
سراى رأس التين أم ملعب الملك. وأشم رائحة البحر
القريب، عطنة وأنفاسها حارة ومائية.

وأهبط، أخيراً، باندفاع، إلى وهدة الأرض المغطاة
بخضرة أكثر وضوحاً وشحوباً، مقصوصة وخشنة
المظهر. وأحس تحت قدمى قوة التربة المتموجة ببطء وثقة.
عتمة آخر المساء تحت صف الأشجار المتقاربة، وللواء
فى أوراقها الكثيرة حفيف أجش. وأكاد انزلق إلى ترعة
ضيقة جداً وفى قاعها ماء قائم يجرى بصمت وسرعة
وينعكس على سطحه اللامع السواد نور لا يكاد يستضى،
كأنه عتمة أخف قليلاً مما حولها، بين قمم الأشجار، من
سحابات بيض، ثغرات مفتوحة فى سماء الليل.

أثب، خطوة واحدة، ولكنها لا تنتهى، على الممر المائى
الرفيع، وكأنى لا أهبط أبدا على الشط المقابل، وأستمر
مرتفعا فى الهواء، فى وثبة صغيرة جدا ولكن لا يفرغ
زمنها أبدا، لا أصل أبدا إلى سفح الأشجار المصفوفة
التي تقف تنتظرنى، تترصدننى. أحلق، وأعرف أنه يجب
أن أصل، بأسرع ما أستطيع، إلى شىء ما، ضرورى.

الشارع المسفلت العريض الذى تقف عليه أسوار
المدافن، صامت وفسيح. أنظر إليه من تحت وأنا أجرى
فى نعومة، كأئننى أشق بلا جهد موجا مفتوحا أمامى،
وجيش العابرين حولى، لا صوت له، وغير مرئى، ووثيق
الصفوف، وسوف تنطبق عليه الأمواج. وكنت هادئ
الأنفاس لا أحس ضربات قلبى. وقلت لنفسى اننى الآن لا
أعرف أين قبر أبى، وأئننى لم أزره مرة واحدة منذ أن
دفن فى حفرة عميقة طويلة، وكنت أريد أن أدفن نفسى
معه ولا أتركه، ولما خرجت إلى هذا الشارع كان نور
الظهر الساطع وهواء البحر يجفف دموعى.

الملائكة الرخامية من وراء أسوار الجبانات تحلق معى

فى الأفلاك العلوية، صلبة وبيضاء، أجنحتها المبسوطة
الثابتة ووجوهها الجميلة كأنها تنقسم لى أنا وحدى.

وتحت رفيف الملائكة أرى العسكرى بحلته السوداء
التي تلمع فيها أضرار نحاسية يومض بعضها وينطفئ
بعضها، يسير بثبات، ويندقيته العتيقة الطراز على كتفه
كأنه جامد فى مكانه، لا يتحرك، ولكنه يسير بخطواته
البطيئة لا وقع لها على الأسفلت، ونحن جميعا معا،
الملائكة وأنا والعسكرى، بلا غرابة ولا سؤال، كأننا فى
بطن مركب مغلقة تخوض بهدوء عباب بحر واحد مياهه
ساجية، ولكننا لا نرى أثرا للبر. وكأن حياتى نفسها
تتوقف على الوصول إلى شط البحر.

أريد أن أسأل العسكرى لماذا المصابيح مطفأة؟ هل
نحن فى غارة؟ فأنا لم أسمع صفارة الإنذار، ولكننى
أعرف أن العسكرى لن يجيب، وأنه لن يسمعنى، وأنه
أيضاً لا يعرف، بالتأكيد.

أريد أن أكسر هذ الطوق. دون سؤال. هذا محتوم.
وعندما أنحرف فى الطريق الواسع الخالى إلى اليسار

فليس ذلك، على نحو ما، بإرادتى. الشارع مظلم،
ومرتفعات الشلالات إلى جانب، بأشجارها العجوز القوية
فى الليل، وإلى جانب آخر، جدران مخازن فورد العالية
أحجارها رمادية وضخمة تقطعها النوافذ الكبيرة المغلقة
بزجاج شديد القتامة تلمع عليه من الخارج قضبان
حديدية سوداء، وليس فيها نور. ولا تنتهى. الأبواب
الحديدية الهائلة عليها أضلاع المتاريس المتقاطعة، وتحت
الجدران صف واحد متلاحق من سيارات الأتوبيس
الزرقاء منتفخة البطن، سطوحها مقوسة وداكنة فى
العتمة التى تتكاثف وكأنتنى أحس لها قواما
وجسما. رائحة المطاط القديم فى عجلات الأوتوبيسات
المرصوفة تختلط بنفث التراب الساخن من الشلالات
والخضرة الجافة وعبق الزهور اليابسة الحمراء التى
تفتتت وغطت بقعا واسعة تحت الأشجار المحترقة من
الشمس طول النهار. وأنفاس البحر الليلية تأتى إلى من
فوق المدافن الشاسعة المزدحمة بالموتى، وأعرف أنه ليس
لى موتى فيها بعد، وأعرف فى الوقت نفسه أن أبى،

وأخى الصغير الذى مات بالتيفود وأختى التى ماتت
محترقة، قد دفنوا فيها، فى مستقبل لم أضعه موضع
سؤال.

كنت قد رأيت منى تخرج من الحارة وتستدير حول
البيت المهدوم، واضطرب قلبى واستدرت بحركة لا أكاد
أحسها نحوها، وتوقفت حركتى فجأة وكأنما غاضت
الدماء من جسمى كله. كانت تسير بسرعة وقريبة جدا من
ابن خالها، وساقاها العاريتان تلوحان ناعمتين ورققتين
تحت فستانها الخفيف الذى يسقط إلى ما فوق الركبة
بقليل، واسعا يهتز بإيقاع رشيق ومتوفز. ورأيت فى
عينيهما نظرة لا يمكن أن يشتبه معناها. نظرة البنت
العاشقة التى تتعلق بحبيبها، فيها هذا الفضول الأسر
والجاذبية الأولية التى لا مفر منها. جاذبية الأرض،
جاذبية النجوم فى مسارها المضروب. نظرة ثابتة، لا
تتحرك، لا تستطيع أن تتحول، وفيها نسيان تام للعالم كله
من حولها، ومعرفة بأن العالم هناك، صحيح، ولكن ليس
له أدنى أهمية. واقتربت بوجهها منه، وهمست له فى أذنه

بشيء. هل كانت ترمقني عندئذٍ بطرف عينا في حركتها
المندفعة بعيداً عني؟ سمعتها تضحك بلا مبالاة كأنها
قسوة. وكان الولد يضحك أيضاً دون أن ينظر ناحيتي.
وعرفت أخيراً، معرفة قاطعة للقلب، أنني، في النهاية، جزء
من هذا العالم الذي ليس له أدنى أهمية.

وعرفت، وأنا مخدر القلب بعد ضربة الجرح، أن في
هذه القسوة مع ذلك علاقة ما بيني وبينها، بيني وبينهما،
علاقة حميمة، وحسية أيضاً، وقلت لنفسى إننى لن أقبل
هذا الارتباط أبداً، ولن أخرج إليها أبداً، ولن أنتظر،
حتى، أن تأتى إلى عن طريق الصدفة أو عن طريق
التدبير. وقلت لنفسى إن القسوة قائمة، هناك، وإن
رفضى لن يمسيها ولن ينفيها. وقلت لنفسى ان العام
قسوة واحدة متصلة.

أسير ببطء، ثقیل الصدر، ولا أعرف متى غادرتنى
الملائكة الحجرية، وفوقى سقف منخفض، وكأننى فى
سوق مهجور، أمر أمام أبواب خشبية قديمة مغلقة على
الناس النائمين. والعساكر تقف على الأبواب، ملابسهم

سوداء مهدلة، وعلى أكتافهم البنادق طويلة الفوهات. لا أرى وجوههم تحت الطرابيش المكسوة بقماش أسود أيضاً له حافة طرية دائرية على الوجه وعلى مؤخرة الرأس. كل باب عليه عسكرى، يقف بجمود، لا يهتم بى. ويهجس بقلبى رعب مكتوم وغضب مكتوم، وأعرف بيقين وإحساس بالجريمة، أنه محرم على أن أمر بهذه الطرق الداخلية. وأتنبأ أقترف إثماً كأنه الإثم بالمحارم. وأعرف أن النائمين يحسون بى. مصابيح الغاز القديمة فوانيسها المربعة تشتعل تحت السقف بشعلات مهتزة. وأنا أعبر هذه الممرات الداخلية بين البيوت القديمة الحجرية كأنها من بيوت الممالك الأثرية التي يلجأ إليها الناس للسكنى والحياة، بعض أحجارها قد سقطت وتركت فجوات مشعثة مظلمة وغاصة بالحياة، تعشش فيها طيور أو لعلها خفافيش، وتتدلى منها أعواد قش جافة لا يتطاير بها الهواء. والممرات مبلطة وعليها تراب ويهب فيها هواء بارد، وحواف البلاط متعرجة جمدت بينها خطوط الطين الرفيعة، صلبة وجزءاً من جسم البلاط.

وأنا أريد أن أنادى، أريد أن أوقظ الناس، أعرف أن هناك ما يهددهم ويهددنى ولا أعرف كيف أقوله. أريد أن أصرخ، أريد أن أجأر، أريد أن تهتز الجدران والأبواب المتهاوية تحت صيحتى التى تختنق وتختنقنى.

أعرف أن الناس من وراء هذه الحيطان القديمة كأنهم موتى. ولكنهم ليسوا موتى. وأن الأمهات نائمات على المراتب القديمة جافة القطن ملقاة من غير ملأءات على حصير الأرض، وأنهن يغطيهن أولادهن بملابسهن القديمة وبأذرع أنهلكها الحنان والقلب المكسور. وأعرف أن الرجال قد ناموا كالموتى، عيونهم مفتوحة، يطبق على صدورهم دخان المعسل والكد والأفيون الردى.

وأحس قلبى مقطوعا شقين، وجافا لن يرتوى أبداً. وكانت قد قالت لى: لكنك لا تعرف كيف تغنى، هل تعرف أن تقول أغانى فريد الأطرش؟.

واقتربت بوجهها منى. وكان فمها كبيراً وحمرة شفيتها طبيعية طازجة، وأردت أن أقبلها فى فمها، وقالت لى: ولكن ماذا تعرف، أنت؟ أنت لا تعرف شيئاً أبداً ولا

أراك أبدا مع أولاد الحارة. ماذا تفعل طوال النهار؟.
كنت أعبر شارع ١٢. وكانت قضبان الترام لامعة
تشق بلاط الشارع الخالي، والدكاكين كلها مغلقة،
والمصابيح الكهربائية متقدة من وراء زجاجها المظلي
بالأزرق ضوؤها غريب ومحزن ولا يستفيد منه أحد.

وعندما نظرت إلى أعلى، فجأة دون سبب، رأيت
الشرفة ذات القاعدة الرخامية الضيقة بسياجها الخشبي
الذي يلوح أن طلاءه القديم قد تعرى عن الألياف اليابسة.
كان القمر الأحمر الباهت المدور ضخما وجسيما ومعلقا
على سطوح البيوت المقابلة كأنه ملصق بالسماء اليابسة،
ضوءه القليل لا يكاد يستبين.

وكانت الشرفة في الشارع الهادئ بالليل تهتز، ثقيلة
تحت حشد من الناس الذين يلوحون بأيديهم ويشورون،
ويفتحون أفواههم ويهزون رؤوسهم، دون أن أسمع لهم
صوتا. ومالت الشرفة إلى تحت، ببطء، وكأنتني أسمع
صوت تقلقل الخشب يُنتزع من ملاط الحائط، ولكني لا
أسمعه. وسقطت الشرفة إلى الأرض، وسقط الناس. ولم

أسمع اصطدامها بالشارع ولم أسمع صراخهم، ولم
أسمع الأجسام ترتطم بالرصيف كأن هذا كله لم يحدث.
وهو قد حدث.

اندفعت إلى الباب الخارجى المفتوح، بحديده المشغول
على شكل أزهار وأوراق وأغصان متعرجة، وكان كل
شيء داخل البيت هادئاً. وصعدت السلالم الجديدة
المصنوعة من الأسمنت المحبب. وكنت أغالب خوفاً من
حضور قوى مهدد يكمن فى ظلمة بير السلم.

وثبتُ الدرجات اثنتين اثنتين وخطبت بلهفة على باب
الشقة. وسمعت صوت الخطب على الباب يدوى مرتفعاً له
أصداء تتضخم وتوقظ سكان الشارع كلهم. وفتحت لى
فلاحة شابة تغطى جانب وجهها النائم بطرحتها السوداء.
لم أستغرب أننا كنا فى أول الصبح، والشقة كلها فيها
نور شاحب وفيه وخامة يدخل من وراء ستائر بيضاء ثابتة
الطوايا تنتهى بشراشيب داكنة الحمرة. وفى الفسحة
مائدة مدورة كبيرة خشبها ضخم ومصقول ومطعم بعروق
ذهبية، وفوتيهات محشوة ومنجدة بالقطيفة ولونها كالنبيذ

الثقيل ملتفة حول استوديو مريح كأنه السرير مكسو
بنفس القماش النبيذى المنتفخ بقطنه الوفير، والسجادة
على البلاط الذى يبدو من تحتها، كثيفة، وقدمى عليها لا
صوت لها.

وكانت نائمة أو ممددة، على السرير، لا أعرف، تحت
أغطية كثيرة وناعمة وغنية النسيج. وكنت أعرف أنه لا
سيقان لها، ولا وجه لها، وأنها أنثوية، ودمثة الجسد، ولا
أستغربها، ولا أنفر منها، ولا أرفضها. بل أحس أنها
تجتذبنى إليها، كأنها تدعونى. وكانت حية ولكن باردة
الدما، وقد استكنت فى الفراش، وكانت تنتظرنى.

وعندما اقتربت منها وانحنيت عليها كان قلبى واجفا
ولكن يديّ ثابتتان. ربت على كتفها الغض وكأنه مكسو
بفروٍ أبيض حى، تغوص فيه أصابعى. وكانت داجنة
وراضية وعيناها مدورتان فاهمتان. ومن خلال الفرو كنت
أحس تحت يدي بكتف امرأة، ناعم الدوران. وكانت تخرج
أصواتا أليفة، شيعانة، دون كلمات. وكأئننى أقبل هذه
الأصوات وأنا أسمعها تتردد فى فسحة البيت الذى ما

كاد يصحو من النوم، أصواتا تكاد تكون إنسانية،
نسائية، ولكن فيها هرير مكتوم خافت، ومواء صغير،
ونقنقة هادئة تأتي من مياه ضحلة ساكنة. ولكن صوتها
كان فيه أيضاً بحة، كأنها توشك أن تتكلم، لأول مرة في
حياتها، من غير جهد ولا معاناة، وبدون كلمات.
وصرختُ، صرخة واحدة.

على الخلفه

أرى المئذنة القديمة ترتفع، بصعوبة، فوق أنقاض
الجامع الذى لم يبق من جدرانهِ العريقة إلا أكوام من
أحجار ضخمة. وعلى حافة شرفتها المكسورة، قريبا جداً
منى، أمام عيني، يقف الغراب، أسود اللون تماماً. حتى
منقارة المديب كان حالك السواد، مطبقاً.

وانتظرت، وأنا أكاد ألمس بيدي دقات قلبي، فلم ينطق
الغراب.

كان راسخاً ومطوى الجناحين، كأنه حجر، لولا أن
عينيه تتقدان بنار مركزة. فصان من جوهر دجى.

وتجيش فى قلبى فتنة، ونفرة. ولكننى مرصود.

كنت قريباً جداً، لأول مرة بهذه القربى، من شيء له
كل هذه الغرابة، وكل هذه الألفة معاً. كأنما كنا معاً فى
حلقة مضروبة علينا، بلا فكاك.

وعرفت أننى عدت إلى غمرة سنوات الحب الأخرس

وأشواق الصبا التي لا مثيل لنور سذاجتها، أن تكون هذه الأرض هي أرض العدالة وأن تعود إلى الناس.

كنت قد خرجت إلى جسر النيل، في عز الظهر، ومجد الأمواج الحمراء يتقلب في عرامة الفيضان. السماء المحترقة بالنور، والأشجار الهفهافة، وبيوت الفلاحين المكومة، كلها معقودة أمام عنفوان هذا الانصباب الذي يدمدم بين جسوره العالية فيفرض على كل شيء مهابته.

وكانت الغربان تعرف، مثلي، شجرة السنط الوحيدة على رأس الجسر الحجري الممتد قليلا إلى داخل النهر. كانت المعديّة الصغيرة تخرج منه إلى الشط الآخر البعيد في التحازيق. أما الآن، وحتى تخفت غضبة الفيضان، فهي مقلوبة على بطنها، متربة.

كنت أتسلق جذع الشجرة المتلوى وأنتزع السائل اللزج من جلدها العتيق فيتماسك قوامه بسرعة بين يدي، بعد أن أجرحها في رفق، كأنها جراح الحب. وكانت الغربان تأوى إلى فروعها النحيلة، وتتنادى بصرخات لم يكن يخيفني نعيها، وتخفق بأجنحتها السوداء، سحبات

حية. وكأنها، هذه الغربان، فهمت، وكأنها تسخر من
نفسها معي. لكننا لم نكن قط أصدقاء. وكان الغراب
الحالك السواد هو شيخها، ويعرفني.

أقف، بلا حراك، تحت المئذنة لا أستطيع أن أحول
بصري عن الغراب، وحدنا في العالم كله.

في جدار المئذنة نافذة دائرية منقورة في الحجر
الكثيف، سدت بألواح من الخشب الخشن ودقت عليها
المسامير. ورأيت قريبا مني جدا، صدأ الرؤوس الحديدية
الخليطة تأكلت حوافها، وألياف الخشب القديم قد اسودت
بطبقات من تراب المقطم وعادم السيارات. الهلال المعدني
بعيد فوق نؤابة المئذنة، معوج القوس. كائنني سمعت
نفسى أقول لنفسي: سقطت كبرياؤه وثب الغراب الضخم،
على غير انتظار، دون أن تصطفق جناحاه، دون أن
يبسطهما، واصطدم، دون صوت، بالخشب الذي يسد
النافذة، وغاب فيها، اخترقها، دون أن ينفتح له فيها أدنى
شرح. مازالت النافذة مسدودة.

صلصلت أجراس مترو حلوان وهو يتدحرج على

قضبانه، بقلقلة يهزم هديدها فجأة وأعرف بلا دهشة أنه
يتجه إلى المقابر. نفثت السيارات المتلاصقة المقتحمة
بمقدماتها في كل اتجاه، نافذة الصبر. الحوذى القصير
المتين يشب على عربته الكارو التي تنوء بأسياخ حديد
التسليح المشعثة، ويثبت قدميه بمقدمة العربة المتأرجحة
ويشد العنان ليوقف حصانه الكثيف الكفل. الحصان
المغمى العينين يزفر فجأة في صدمة الكبح التي لا تطاق.
الناس ينسكبون سيلا واحدا بلا انتهاء، فرادى ولكن في
مجموعات متدافعة ينثالون، كالعجين الكثيف، بين
السيارات وجنب خيل العربات وفوق القضبان وعبر
الأرصفة وتحت الدكاكين وعلى أبواب البيوت، في الحر
والعرق والتراب وضجة النهار متنافرة الأصوات.

في قلب هذا الإلهام من زحمة الناس، عالم آخر،
منفصل ولكنه وثيق الصلة بنياط قلبي، أعرف أنه عالمي
الذي ليس لي غيره. فقط أحس بضغطه يزداد فداحة
وأعرف أنني لا أريد الخلاص من هذا الثقل.

وقبل أن تندّ عن حلقى المسدود صرخة كابوس الفجر

المعتادة التي أعرف أنها لقادمة الآن، تبدأ متحشجة، ثم تنفجر، تدوى في الصمت بجنون لا يعي شيئاً، بجموح يهتز له أول الصباح، قبل أن ينفلت الوحش المتربص دائماً في قلبي يكسر شرخاً في جداره بصيحة زئيره المتصلة، وجدت نفسي أسقط فجأة، درجة كاملة من درجات هذا العالم. لم أترك المئذنة القديمة ولا ضجيج الناس المحتشد وكنت في الوقت نفسه، في مساء الطرانة ومعى «لنده»، أمام الغيطان.

ولأول مرة وحدنا، نسير على جسر النيل، ونعرف أن الحقول حوالينا خالية. الحدأ والغربان تطوف فوقنا في السماء الحارة التي تستروح طراوة الغروب.

وكنا معاً، دون كلام، نسترق النظر إلى الغيطان، نستوثق أنه ليس فيها أحد من الفلاحين. كنا قد خرجنا وحدنا دون أن نقول لأحد. وكنت أحس في هذا ما يشبه الجريمة أو المروق، على الأقل. ولو عرف الأهل فماذا يمكن أن يحدث؟ كان هذا الخوف يحفز القلب، والمغامرة غير محسوبة الوقائع.

كان التراب الهش يثور تحت أقدامنا فى هبوات ترتفع
قليلاً ثم تنعقد لها سحابات صغيرة حول أرجلنا، وكانت
هجسات مولد الصبا الصعب تملأ نفسى برغبات لها ثقل
يهب ببطء كأنما لن يصل أبداً إلى قرار.

كانت لنده تدفع بساقيها فى الشبشب الذى يبدو ثقيلاً
وأجنبياً وغير مستقر فى قدميها، فقد كانت تمشى، عادة،
حافية.

وقلت لنفسى: ومع ذلك فقد كان أبوها صرافاً محترماً
ولها أولاد عم فى الهندسة والزراعة.

وكانت كل يوم تغسل قدميها وتحكهما بالحجر الخفاف
حتى يحمر الجلد ويعود إلى نعومته. دخلت مرة إلى بيتهم
فى الليل، وكانت عارية الساقين أمام الطشت وببيدها
الابريق. ورأيت نعومة ساقيها كأنما أحسستها بعينى.
وعندما كنا نجرى ونحن نلعب عساكر وحرامية مع أولاد
العائلة وبناتها، كنت أتعمد أن ألمس قدميها بقدمى
الحافيتين أيضاً.

كانت لها ضحكة من القلب تنطلق دون عناء، من فيض

السعادة بالشباب. ضحكة بنت تشتعل بنضج أنوثتها.
بينما كنت لا أعرف كيف أضحك.

كنا ننزل الآن، نكاد نتدحرج ونقع، بسرعة متزايدة
الإيقاع، من حافة الجسر إلى فسحة من الأرض على
الشط مباشرة. وسمعت غرغرة المياه الحمراء وهي ترتفع
بالفيضان، كأنها محسوسة، تحت شقوق الأرض التي
تتسع رقعة البلل فيها. غداً سوف تغيب تحت المياه
المتصاعدة.

كان المغرب ساكتاً إلا من نغيب الغربان على شجرة
السنت العالية، يصل إلينا من بعيد. وكانت هذه الناحية
من الجسر على غير طريق عودة البهائم من مرعاها فهي
صامتة وموحشة، وكنت أحس الغيطان منهكة بعد صهد
النهار. شواشي الذرة لها وشوشة وحفيف لا يكاد
يستبين.

وكأنما على هذا الجسر نفسه، وكأنما على مقربة من
شجرة السنت هذه نفسها، وقف محرك السيارة فجأة
وهبط طنينه إلى الصمت. كان الطريق في أول الليل سخناً

من حر يونيو الثقيل، يمتد بين سور منخفض وبيوت المقابر التي تبدو مبهمة ملتبسة، أبوابها الحديدية على شكل غصون متعرجة وأزهار يومض من بينها المغيب القاتم. امتدادات الأرض تتناثر عليها الشواهد القائمة والمائلة، والمكعبات المحدبة، مصفوفة ومتناثرة، أطول قليلا من الجسم المدفون، وبينها فراغات مرهوبة. وكانت القباب العالية من ورائها كتلا من المعمار كأنما لا وزن لها، تسبح، داكنة، بازاء السماء التي تبدو خاوية وخفيفة. صخور المقطم معتمة ونائثة الحواف، ومصاييح الشوارع الصاعدة متباعدة، بقعا مدورة بضوئها الأزرق الباهت.

عندما فتحت باب السيارة كان انتفاضها المتوتر قد خبا أخيرا. وسقطت قدمي على الطريق كأنما بلا انتظار، كان الطريق أخفض قليلا مما توقعت، وثارت تحت خطوتي غرفة صغيرة ظلت معلقة حول ساقي، ونفضت رجل البنطلون وسمعت السائق:

- قُرْنِي بيته بعيد يا بيه.. والسيارة ليست لها سكة

هنا بعد الآن.

قلت: لا يهم.. نسير على أرجلنا.. يا الله بنا.. على بركة الله.

ثم قلت: المهم أن نعثر على المفتاح.

وفكرت ان أمامي ليلة طويلة من العمل، من وراء زجاج النوافذ المسدلة عليها ستائر سوداء متهافئة القماش. وقلت لنفسي إن البرقيات يجب أن تصدر في الصباح، من غير جدوى، إلى كل العناوين في مشارق الأرض ومغاربها تستصرخ بيأس صادق وتعلات كاذبة، وفكرت أن الصحراء في هذا الليل بلا رحمة، وكنت أمقت السماء وهي تنقض على جسمي الذي لا منعة فيه، في هذا العراء.

لم نكن قد عثرنا على المفتاح، وقلنا إن هناك نسخة منه مع الخفير الذي يسكن في بيوت المقابر، وقلنا نذهب إليه اذن، ثم نستدعي دورية السهر بالتليفون بعد أن نعود. وكنت أعرف وأنا على أول طريق المقابر الموحش أننا لم نرسل البرقيات قط في الصباح التالي، وكنت عندئذ أحس أنفاس القاهرة المحبوسة تتردد في صدري

والمدينة أصبحت شاسعة صامتة كما لم أعرفها تصمت
أبداً، واللاوتوبيسات الثقيلة الحمراء تنطلق بهوج في
الشوارع الساكنة وتميل بجانبها من السرعة، نصفها
فارغ وركابها لا يتكلمون. وكنت أرى الهواء الذي
يخشخش بورق الصحف والتراب الخفيف على الأسفلت.
كانت الميكروفونات تردد في هذا الصمت بيانات ميتة لا
يسمعها أحد. كان توقع وصول المساء يثقل القلوب بعبء
قابض.

ووقفت من جديد تحت شجرة السنط القديمة وقد غلظ
جذعها، وثقلت فروعها وتراكبت، وهي الآن تصعد من
تراب الجسر الذي لم يعد يدك بالحجر والطوب وظهرت
فيه حفر هشة، وامتد إلى جانبه طريق جديد مسفلت في
وسطه خط عريض من أثر جريان عجلات السيارات،
وعليه أعمدة رفيعة في كل منها مصباح كهربى واحد
صغير أصفر مشتعل في عز النهار. كان النيل قد روض
الآن، وصمت، وينسكب نحيلا ومنخفضا. وقلت لنفسى
هل انقضى فعلا عصر الرؤى، وانكسرت؟، وقلت لنفسى:

لا أعرف بعد كيف أخلص من الأحلام الرثة، وقوالب الكلام.

كانت قد جفت قشرة هذه الأحلام وتخمرت عجينتها الدفينة، وكنت أحسها دفينة وموجعة كجراح الحب. ومددت يدي إلى الشجرة العجوز وعرفت أن عصارتها قد يبست، طالما صنعت من كرياتها ملء زجاجات الصمغ عاماً بعد عام، ألصق بها في كراسيات المدرسة صور دستوفسكى وعرابى والطهطاوى وكيّتس وتروتسكى وشكسبير.

كانت الشجرة مهجورة ليس عليها غراب واحد ولا تدور حولها العصافير الصغيرة القلقة التي لم أعرف أبداً ما اسمها.

فاجأنى السكون المطبق على كل شىء، جسر النيل، وسعة الغيطان، وحوارى القرية، وحنفية الماء المكرر الذى يتقطر على التراب، كلها صامته الآن.

أزيز عجالات سيارة فيات لامعة تمرق فجأة بجانبى كأنها تسير فى فلك خاص محاذ للنيل ولكن لا صلة

بينهما . سلسلة من سيارات النقل المرتفعة الجدران لها
مقطورات مسطحة، حمولتها مربوطة بحبال قوية، وفوقها
جمال خاسف الجسم نائم كأن عظامه مكسورة، ومكومة،
يطير الهواء بجلبابه الذى لا لون له.

كان هذا الصمت منذرا . لم أرَ فى السماء الحدأ
الترصدة التى كانت تحلق فى دوائرها الواسعة، ولا
الهداهد التى كانت تنتقل بسرعة من الغيطان إلى
الشجر، ولا مجمع الغربان.

وسمعت نفسى أسأل: أين الطيور؟ أين هدهد
سليمان؟

وقال قريبي وهو الآن فى بكالوريوس العلوم: طبعاً يا
سيدى اختفت.. المبيدات الحشرية.

وطاف بذهنى من غير مناسبة أنه فى الأحلام تأتى
كلمات. وأفكار كل يوم، وكأننا فى الحلم نزجى وقتاً مملاً
بكلمات لا نقصد منها شيئاً.

وقلت لنفسى: قطن الحكومة له ضريبة فادحة.
عندما إلى عجلة الساقية القديمة المرمية على الأرض،

جلسنا على خشبة عريضة متربة، أحد طرفيها مرتفع
يستند إلى حجر كبير ساقط من الجسر، والطرف الآخر
يهبط إلى الأرض، وقد نال من الخشب عطب، فتحللت
عضلاته، ولكن بقى عودها قوى الأسر. العجلة الضخمة
تكاد تسقط على جنبها، فى توازن يمكن أن يكون منذرا
لولا أنه عريق الثبات، غاص جانب منها فى الطين الجاف،
فى هذا الوضع الغريب، فى هذا الغروب الغريب، برهبة
الأشياء المهجورة التى يرودها حضور غامض. مياه النيل
العريض تصطفق بصوت اصطدامات مائية متعاقبة
ومتغيرة الإيقاع فيخفق لها قلبى فى توجس وفرح،
وتنعكس السماء على الطمى الداكن الأحمرار. انحسر
طرف جلابيتها عن كاحليها اللذين أدهشتنى دقتهما
ونعومتها، وأثارتنى، وهى تجلس، وتسوى نفسها على
انحدار العجلة الخشبية فيبرز أعلى فخذها من وراء
الجالبية مدورا ومحبوكا يبدو لعينى غض اللبس. وفى
نور المغرب رأيت وجنتيها متضرجتين بنار نضرة. وكانت
أنفاسها متسارعة، وهى صامته على غير عادتها، وعيناها

تلمعان بسواد ساطع. كان هذا غير الأحمر الذى أعرف
أنها تضعه عندما تبلل قطعة حمراء من القماش المشبك
تبيعها البلانة لصبايا القرية ونسوانها فيبللنه بالريق
ويمسحن به الخدود والشفاه. وكان ذلك هو زواقتها يوم
الأحد عندما تأتى إلى الكنيسة. وكنت أعرف أن أمها
تدعو عليها وتستمطر لها التوبة من الله عن هذه النيلة
التي عملها فى نفسها، وتدعو لها بالعدل وابن الحلال
الذى يكفيها ويشكمها، وأنها هى تحلف بحياة الصليب
أن هذا اللون ربانى وماذنبها فيه، ثم توقد شمعة أخرى
للاستغفار من الحنث بيمين الصليب، وتصلى بحرقه
وتترقق عيناها بالدموع فى القداس.

وسمعتها وهى تقول: أنت ستعود إلى الإسكندرية بعد
قليل أو كثير، فى آخر الصيف، لتذهب للمدرسة. أهذا
ضرورى، المدرسة؟ لماذا لا تشتغل، وتكسب؟ ولم أجرؤ
على فهم ما تقول. كانت جلابيتها الفلاحي الملونة تسقط
الآن على جسمها المتوفز، كأنها حيوان فى عز فتوته.
كانت فعلا حيوانا أنثويا فى عنفوان الشباب. وفكرت أنها

تكبرنى على الأقل بثلاث أو أربع سنوات. وقلت لنفسى إن هذا لا يهم.

وكأنتى رددت عليها: أشتغل، أنا؟

وسمعتها تقول: آه تشتغل، وتأخذ ما تريد. ألسـت

رجلا كالرجال الذين يشتغلون، ويكسبون؟

ولم يكن قد خطر ببالى أننى لست كالرجال الذين

يشتغلون ويكسبون. ولكننى لم أكن أعرف كيف أجيب.

وكنت أعرف أننى هنا فى نطاق خاص لارد عليه، يخالف

كل ما أعرفه. وخيل إلى أننى قلت: عندما آخذ التوجيهية،

وبعدها الجامعة أيضاً سأشتغل طبعاً.

وسمعتها تضحك وعرفت فى ضحكتها مرارة لا شأن

لها بى: يوه.. موت يا حمار.. لغاية ما ييجى لك العليق...!

ورأيتهـا تقوم فجأة، وانسدلت جلابيتها على جسمها

الذى توتر بيقظة مفاجئة وهى تصعد الجسر الوعر

برشاقتها النافرة، وردفاها يتحركان فى إيقاع متناوب

سريع، وهى تمد ذراعيها بتوازن حرج، وأرى، وأنا تحت،

صدرها الذى لا يسنده شىء يهتز وهى ترقى الجسر،

وتثب إلى سلامة حافته.

وأنا أيضاً أؤمن انحدار الجسر لا أصل أبداً إلى
أعلاه، خطواتي لا تنتهي أبداً والسماء عالية، ولا تبدو لي
غربة على الإطلاق في هذا الصعود المتصل الذي لا بقاء
ولا سرعة فيه، كأنني لا أتحرك، وكأن الجسر ما ينني
يزداد علواً كلما واصلت الارتفاع عليه، لا دهشة ولا
تساؤل، بل إرهاق طويل. كنت أعرف، في هذا الصعود
الذي لا أكسب فيه ولا أخسر أرضاً ولا زمناً، إن نسخة
الأهرام الوحيدة سوف تصل إلى القرية بقطار بعد الظهر
وسوف يأتي بها ساعي البريد الطواف على حماره الميري
الأبيض، وسوف أقرأ في آخر هذا الصيف، أن
تشيكوسلوفاكيا قد سقطت، وكنت أنا أيضاً، كأقربائي
الفلاحين، أجد صعوبة في نطق اسم هذه البلد الصغيرة
البعيدة، وكنت أرى حروف المطبعة الكبيرة المسطحة في
العناوين الممدودة بالاحمر على عرض الصفحة الأولى،
ونص إعلان الحرب على المانيا، بتوقيع الملك جورج
السادس.

أرى الحرس العسكرى يقف بإناقة وجمود، على باب
ميناء هاوس، وسيارات الجيب العسكرية وعليها المدافع
الرشاشة مصوبة إلى الشارع. ولوريات الأمن المركزى
فى الظلام مكتظة بالجنود، غامضة المعالم وثقيلة.

دخلت من الباب الزجاجى العريض المائى النسيج،
الأنوار الملونة المعلقة فى السقف بحلقاتها الصفيح
المخبوءة بمكر الصنعة تسقط على السجاد والبلاط
الرخامى الفسيح. منصات الموجنى المصقولة، هرير
التليفونات وأصواتها النسائية بالإنجليزية والعربية،
المقاعد المنخفضة تفوح فيها أمريكيات سيقانهن عظمية
مكشوفة، وعرب بالعقال السعودى والطاقيّة الكويتية
المخرمة والجلابيب الحريرية التى تتخايل من ورائها
أرجلهم الدقيقة فيما يشبه بذاءة لا تكاد تلاحظ، عيونهم
المسدودة تحت حواجب عميقة السواد تطل من وجوه فى
لون الزيتون، والسفرجية بطرابيشهم وأحزمتهم الحمراء
يتحركون حركات الدمى، البوتيكات وشركات الطيران
خالية وأنوارها متقدة، كأنها منسية، من وراء الأبواب

الزجاجية المغلقة، وآلات التكرز من وراء الأبواب الشفافة
تدق بخفقات معدنية موزونة الموسيقى وأرى مصابيحها
الصغيرة مشتعلة بنار صفراء.

كنت أسير عبر الردهة الباذخة لا تحتجزنى ومضاتها
كأئننى أعرف طريقى.

كانت الصهاريج الألومنيوم الهائلة تطن، وتفتح بخارا
ساخنا فى سحابات بيضاء لها وشيش مملى يخبو
ليصعد من جديد، فى دقات منتظمة. وكانت المراحل
المتينة القوام تغلى بنيران كهربية تصدمنى قوتها لا
تنفرج، والأنابيب الضخمة تمتد فى خطوط مستقيمة
الزوايا وترتفع حتى تخترق السقف الشاهق، ومنصات
المطبخ الحديدية عليها خطوط بارزة تسيل بزيت شفاف.
كنت أبحث عن شىء أعرف أننى لن أجده هنا أبدا مع
ذلك، وأواصل البحث فى لهفة. ولم يكن من الممكن أن
أسأل الطباخين بقاماتهم الطويلة وقبعاتهم القماشية
البيضاء العالية وقد تهدلت قليلا من الحر والبخار، وهم
يعكفون على طواجن نحاسية ضخمة كأنها أقواس دائرية

مُقتطعة من خزانات البترول التي نجدها بالقرب من
محطات السكة الحديد، يقلبون ما فيها بمغارف خشبية
طويلة، داكنة من البلل، ووجوههم لا تعبير عليها.

واندفعت، في بحثي، بين الطباخين الذين لم يشعروا
بى، كائننى أصلاً لست هناك، إلى هذه المواعين اللامعة
الجدران. وانحنيت عليها، كأنما أنتظر أن أجد فى داخلها
ما أنشده.

الطيور الضخمة التى تعدّ للوجبات العامة، مسلوخة،
منتوفة الريش، مشدودة الجلد. أعرف أنها حية، ماتزال.
وتنبض. تغوص قليلاً فى عجينة كالمايونيز طرية مصفرة،
كثيفة، ولها رؤوس مقلوبة على وجوهها تتحرك حركة
واهنة، عيونها مدفونة فى العجين المتخمر بفقااعات كبيرة
تتضخم ثم تنفجر بصوت بذيء، ولها من الخلف انحناءات
مألوفة، حليقة ومدورة، تنتهى إلى أعناق شبه بشرية،
ظهورها نصف الغارقة تنتهى إلى سيقان مدكوكة العضل
ملوية عند الركبة، لا يبدو غير نصفها العلوى. وكان
انسحابها الأنثوى غضاً وله جاذبية تقبض الأحشاء، تحت

استدارة الأرداف المليئة نصفها فوق العجين ونصفها غارق فيه. الأفران الضخمة تنز تحتها، والعجينة تغلى وتنفور، والأطراف شبه البشرية تبدو كأفخاذ بدينة سخنة، يلتقطها الطباخون بمغارفهم فتنفصل بسهولة عن المفاصل، كأنها من غير عظام، ويقذفون بها إلى الصهاريج التى تنفث سحبات البخار، وعندما ترتفع فى الهواء كانت أقدامها تبدو ناعمة الجلد وأصابعها وادعة ومثيرة.

ورجعت، أجرى هادئ الأنفاس، لم أجد ما أبحث عنه. وفى هذا العالم السفلى وصلت إلى المصعد الواسع الذى لا باب ولا سقف له، أرضه من أعواد الخشب المتجاورة على حديد مسطح، وبها لزوجة من أثر الشحم والدهن القديم. هبط المصعد بى فى بئر المعتمة العميقة القرار، حباله المعدنية المصفورة، أمام عيني، تهتز فى توتر مستمر النبض، حتى خبط بالقاع فجأة فى هديد مكتوم، وخرجت من كسر مفتوح فى جدار رقيق منفصل، مقام على طوبة واحدة.

مازلتُ أُجرى فى حقل لا نهاية له من التراب الموحل.
الانقاض حولى ترتفع وتنحدر فى أكوام هائلة متتابعة
حتى مدى البصر. قضبان حديدية، كأنها شرائط ورق،
تخترق هدد الأحجار المتساقطة بالتواءات مدببة وكأنها
حية ما زالت ترتعش، وتطعن السماء داكنة الحمرة.
أطراف الأفق، عند النيل، تشتعل بدخان بنفسجى قائم
كثيف الاحتراق.

لم يكن لجسمى وزن وأنا أصعد وأهبط فوق الآكام
وفى بطون الأرض. الأتوبيسات كأنها ضغيرة نصفها
ما زال يبدو فى نور السماء أحمر اللون بقذارته المعتادة
ومحركاته المكشوفة، وقد قذف بها فوق ركام الحجر
والحديد مقلوبة ومنبججة وظهورها قد خسفت ومقاعد
ناثئة تخترق زجاج النوافذ العريضة الذى لم ينكسر.
أرضية كوبرى ٦ أكتوبر العلوى قد انقلبت وأصبحت فى
امتدادها الرأسى النحيل حائطا عموديا يقف فى عرض
النيل، سقطت كتل الأسمنت الضخمة ما زالت متلاصقة
ولكنها تنبسط جداراً رفيعاً يشق السماء، انزلقت عليها

السيارات وهى تنقلب، وغاصت فى النيل، لا يدل عليها إلا فقاعات من الهواء تنفجر بهدوء على المياه السوداء.

ويبدو كوبرى قصر النيل قريبا منى، مكسورا من منتصفه كأنه مقطوع بسكين حادة، مازال نصفه مستويا يهتز أقل اهتزاز، سياجه معلق، بأعمدته الرقيقة القصيرة، لا يحيط بشئ، فى الفراغ، فوق الأمواج قاتمة الخضرة وعليها حلقات متكاثفة الورق من نبات ورد النيل الغليظ. برج القاهرة يميل بارزا من بين النباتات، يمتد من الجسر إلى قلب النيل، يبدو مسدودا وتتموج حوله دوامات صغيرة، وبجانب طرفه الساقط على الأرض تتأرجح فى مياه الشط معدية سليمة الأخشاب وكاملة وفيها مجدافان، يرقد فيها المراكبى وزوجته وأولاده، هادئين، كأنهم نائمون، ومازال وابلور الجاز مشتعلا يفح، وبجانبه طبخة سمك لن يأكلها الآن أحد.

ورأيت الكورنيش وميدان التحرير ومبنى الاتحاد الاشتراكى القديم والهيلتون الجديد ومبنى ماسبيرو العريض المستدير بأبراجه وأعمدته اللاسلكية كلها قد

تحولت بضربة دمار كاملة إلى هدم وحطام. ربوات صامته ومظلمة في حقل موحل يهبط إلى وهداث غائرة. البيوت القديمة بمشربياتها المتهاوية مازالت قائمة، ومازال الغسيل منشورا عليها، في وسط امتداد الانقراض التي تنبسط في تلال مضطربة بين الكبارى الساقطة، وعلامات النيون المقطوعة ماتزال تشتعل بالأخضر والأحمر من غير جدوى، حتى ميدان رمسيس ومحطة باب الحديد. والتمثال العظيم منكفى وجهه في التراب، تنبثق من فوقه اندفاعات المياه الرفيعة الخطوط من نافورة مازالت تعمل بانتظام وآلية، تحت احتراق السماء الكئيب.

ورأيت في وسط بركة من الماء الأحمر الساكن وجه لنده، مقطوعا وهادئا ومازالت على شفيتها ابتسامة صغيرة كأنها تحلم أو تسخر، وشعرها الأسود الناعم الطويل، من تحت المدورة البيضاء المغضنة، يطفو فوق سطح الماء الضحل، تهتز خصلاته الرقيقة اهتزازاً صغير التموجات. وقلت لنفسى: أوفيليا الفلاحة التي لم أفهمها.

وكانت تتحرك في الطين أفراس البحر، سوداء الجلد

غليظة القوام، أفواهها مفلطحة ولها خراطيم تتحرك
كالشفاه وتتماس في بحث بطيء عن لمسات كأنها قبلات،
ولها أصوات كأنها لغة. وجاش قلبي بالبكاء، أخيراً،
وانهار، عندما سمعت منها نبرات من الكلمات خيل إلى
أننى أعرفها، كلمات من لغة قديمة عذبة نسيتهها، ولكننى
كنت أعرفها، وكأنها تبحث عن حنان، عن شوق، تدرك أنه
مفقود، وتدرك أنه كان هناك، وأنه لا ينتزع ولا يموت حتى
فى ظلمة الأحشاء المرخوضة.

وكنت أسمع انفجارات صغيرة متقطعة لها أصداء
موحشة، طلقات بنادق ودمدمة مدافع رشاشة وقرقعة
قنابل يدوية، متناثرة، تلوح كأنها لن تنقطع.

وكنت أعرف أنهم تحت، هناك. يتحركون وسط
الأجهزة ويحركون الأشياء فى أنفاق محفورة على أعماق
بعيدة فى الأرض، مصمتة ومعزولة تماماً، منيرة بضوء
معدنى باهر ثابت الدرجة لا ينطفئ ولا يصدر عن
مصابيح بل تشع به الجدران المنسابة المصقولة، وتحميها
مدكات هائلة الحجم من الأسمنت والحديد عليها أقواس

الرادار التي ما تفتأ تدور بلا توقف. وكأنهم هم أيضاً من معدن أسود. عيونهم مدورة، ثابتة، أجسامهم محسوبة وعقولهم تنبض بذبذبة منتظمة الإيقاع متصلة ولا تغفو. وكنت أعرف أنهم هناك، تحت، آلات فيها حياة، فى قلب هذه الآليات الضخمة التي فيها حياة، خططوها لأنفسهم وبأنفسهم تخطيطاً لا يناله أدنى خطأ فى التصميم، وهم مع ذلك خائفون.

وفى الليل، وتحت قرقرعات تمزق لحم السماء الميت بطعنات لها ضوء عقيم، كانت أقدام الناس تدوس فوق الحطام، وكان هديرهم المدمدم فى الظلام يصل إلى قلبى فيملؤه، ويفيض، بالماء الداكن القديم. وعندما عدنا بالسيارة فى الفجر المظلل بغمام ساخن كان طوفان الناس يغرق شوارع المدينة المتهدمة بالجلاليل والقمصان والبنطلونات، والفلاحات بالملس الأسود، الرؤوس الحليقة الصلبة العظام التي سهرت طول الليل فى زحمة القطارات، تطفو متلاحقة بين واجهات البيوت الكالحة، ووراء أحجار السلاالم المنهارة، وحول العمود الجرانيتي

المستقيم المستدير الذى يرتفع، لم ينله خدش وقمته
ما زالت خاوية. ورأيت بينهم من يحمل فأسه ومقطفه على
كتفه، وهو يلبس جلابيته الوحيدة المتغضنة المغسولة.
وكانت الكلمات المكتوبة بخط سريع وملهوج على لافتات
القماش والخشب والورق المقوى، وصور الرجل التى لا
عداد لها، مائلة ومنتصبة، تعوم فوق الطوفان، تبدو من
كثرتها كأنها لا تقول شيئاً، وكانت الأتوبيسات الحمراء
خفيفة الوزن الآن تفرغ حمولتها فى ميدان التحرير وتعود
بسرعة من أى طريق إلى خطوط السكة الحديد فى ميدان
المحطة الفسيح الخراب، وكأنها تسابق موعداً قد أزف،
بل فات.

كنت أسمع هدير الأقدام تخوض فى المياه القليلة
الغور وتستند إلى أنقاض الأحجار التى غاصت فى
الطين.

وأعرف أنه لن يوقفهم شىء، وأنهم ينصبُّون فى أعداد
لا تنتهى، وأنهم صامتون الآن.

الثعبان والنهد الخئون

كانت رائحة البحر والسّمك النّى الطّازج تتغلغل في
الحوارى الموحلة قليلاً، مياه المطر من نوّة الأمس مازالت
تترقرق تحت هبات الهواء الملح، وتنتهى إلى الأرصفة
البازلت.

وكنت أمشى بسرعة بين البيوت المبتلة القليلة الارتفاع
أحاذر أن أنظر، بشكل صريح، إلى المداخل المعتمة قليلاً
المليئة بالنسوان، منهمكات فى الطبخ أمام مواقد الجاز
التي تفح وتنير العتمة بنور أصفر ثابت الاتقاد، أو
متربعاتٍ أمام الطشوت المعدنية يغسلن ويدعن هدم
الرجال والعيال، أو مُحنيات الرؤوس عاكفات على تنقية
الرُزّ فى الصوانى النحاسية فى نور النهار على عتبات
البيوت، وهن يرضعن أطفالهن تركزن لهم أئداءهن بحركة
نسيان لهم وللعالم كله، وكنت أحس عيونهن مفتوحة على
صاحبة لى فى الوقت نفسه، متسائلة.

كنت ذاهباً إلى الربيع القديم في بحري، وقد استأجر
فيه قاسم اسحق شقة صغيرة، من غرفتين على السطح،
ليهرب من مطاردة البوليس.

عندما عبرتُ الباب الضخم العتيق، عالياً جداً ورؤوس
المسامير الغليظة مدقوقة في خشبه السميك، إحدى
ضلفتيه مفرزة في تراب الحارة التاريخي والثانية
مسنودة لا يمكن تحريكها على حجر الحائط العريق
المُسود، فجأتني رائحة الرطوبة وبلل التراب في الفسحة
الواسعة العتمة. كان زجاج نافذة المنور العلوية، وأنا أرفع
إليه بصري، فيه أثارة باهتة من ألوانه القديمة الزاهية،
وتراكمات التراب الذي تكثف وجفَّ حول حفاقي الزجاج
وقد زحف وساح تحت مطر الأمس.

مررت بجانب العربة الكارو عالية العجلات ذراعها
الخشبيتان الطويلتان مسنودتان إلى حائط بير السلم،
وصعدت السلم الخشبي الحزوني العريض، درجاته تصيَّ
تحت قدميَّ. خشبها قد اهترأ وانبرى تماماً وزال من
المنتصف في بعض الدرجات والدرابزين البلوط السميك

الدور نَعَمْتَه سنوات من مَسَح الأيدي ومِسْكها
وتحسّسها، يهتز ويميس كأنما يوشك على الانخلاع.

فتح لى قاسم اسحق الباب بعد أن طرّقه كالمتفق
عليه، ثلاث طرقات متلاحقة ووقفة ثم طرقة واحدة وبعدها
بقليل طرقة واحدة أخيرة.

قال بلهفته المعتادة وحيويته المستمرة: هيه، إيه الأخبار
فيه حاجه؟

كانت الجيم عنده أسوانية نوبية مُعطشة ومُشبعة،
وكان، حتى فى لهوجة السؤال والقلق، يبتسم ابتسامة
خفيفة كأنما على الرغم منه، ووجهه الأسمر الوسيم مدفوع
به إلى الأمام فى توجسه وتطلعه، وعلى صدغه الأيمن
التشريطان القبليّان التقليديّان، رأسيّين، بلونٍ أقل سمرة
من جلد الوجه، وتفوح رائحة البريانتين الكثيفة من شعره
الخشن الصلب كأعواد حلفاء حوشية. كنت أضحك عليه
وأغضب منه قليلاً، فى طهرانيتى الصببانية، عندما أجده
يقضى ساعات، حرقياً، فى تنعيم هذه الحرشة من الشعر
وتمسيدها بالبريانتين ثم يربط عليها فوطة يتركها ملفوفة

على رأسه، نسوية الإيحاء قليلاً، طالما كان فى البيت.
ضم حوالبه الجلابية النوبية البيضاء القصيرة فقد هب
عليه الهواء البارد عندما دخلت.

- خير لغاية دلوقتى. النيابة طلعت أحمد النمى
ويسرى حليم من غير كفالة. عبد القادر نصر الله أتجدد
أربع تيام كمان بس المحامى بيقول ما فيش قضية
خالص. إطمئن عبد القادر جدع. إسمك ماجاش خالص
فى التحقيق.. بس يا عم...!

جلس على الكرسى الخيزران الوحيد فى الغرفة
الواسعة الخاوية، الدافئة مع ذلك بشكل غير متوقع، خلف
المكتب المهدم المكوّمة عليه كتب القانون وكراريس
المحاضرات ومسودة ترجمة «الأدب والثورة» التى كانت
يحاولها منذ شهور ولا يريد أن أشاركه فيها.

كان ثورياً وصلباً حتى النهاية، وفى السجن بعد ذلك
بسنين انضم إلى «حدثو» وقضى فترة الواحات كلها
بشرف وخرج واشتغل محامياً فى أسوان ومات بسرطان
فى المخ، ومازلت أعزه جداً ولا أتصور أنه مات. أفكر

أحياناً أننى سأراه عندما أذهب إلى أسوان.

كدت أتحرج وأسقط على السلم إذ انزلت قدمى على
درجة ممسوحة بالية الخشب واهتز الدرايزين فى يدي
بشدة وأنا أتشبث به وأتأرجح معه.

انفتح الباب فجأة بينما العالم يدور ويميد وينهار من
حولى وكأنما تنفتح تحت قدمى هوة فاغرة الأغوار
مظلمة، وقبل أن أراها سمعت صوتها الخفيض المبطّن
بشهوية خاصة.

- باسم الصليب وشارة الصليب، اسم الله عليك وعلى
أختك، مش تحاسب يا خويا؟

كلمات أمى عندما كنت أقع على الأرض فى طفولتى،
وأتساءل دون كلام: من أختى؟ وما شأنها هى إذا وقعت
أنا؟

ولكن الصوت كان فيه مع ذلك من الحنو والخفوت
الأنثوى ما افتقدته فيما أعرف من صوت أمى المشبع
بسُلطة الأم وانفرادها بابنها، مع اللهفة المشتركة.

كان الوجه الغامق المسحوب الذقن الذى يطل على من

وراء الدرايزين وجهاً قبطياً مرفوعاً من تابوت في الفيوم
ولكنه حي ونضر وأملس الجلد كأنه ذهبي باهت ومصقولاً
جداً والعينان الواسعتان الغويتان يحيط بهما سواد
الكحل البلدي.

- تعال تعال يا خويا، يا ضنايا دانت وشك مخطوف،
عاديك ولا الليمونة، تعال اشرب لك بق ميه ولا حاجة.
إدخل أعمل لك شاى..

عندئذ فقط رأيت أنها تحمل طفلاً صغيراً جداً تضمه
بذراع واحدة إلى حضنها، وفي العتمة الخفيفة رأيت أن
صدر الجلابية الكستور المفتوح مبتل وأدكن قليلاً مما
حواليه، وشممت رائحة لبن الأم لا يخطئه الحس خصبياً
ونفاذاً وفيه أثارة من حلاوة.

كانت ملامح الولد دقيقة جداً ومنطمسة في صدرها
ومجعدة قليلاً، عيناها مغمضتان وجفناه منتفخان كأنه
عجوز ويده الصغيرة الواضحة الأصابع مبسوطة على
تدوير صدرها بطمأنينة الوداعة التامة، أما جسمه فملتبس
على بعضه بعضاً في حضنها يلوح لزج الجلد بارده.

ولمعت فجأة على تقوية جلابيته البيضاء زرقة الخمسة
وخميسة بخرزها الصغير وأصابعها المفتوحة على
آخرها، والصليب البنى المصقول الخشب.

هل قلت شيئاً؟

لا أذكر.

كنت جالساً على الكنبه الأسطembولى المعتادة فى غرفة
فسيحة ودقيئة وأمنة، وكان المطر يدق بانتظام ويتقطر
خيوطاً سائلة نازلة على زجاج النافذة العريضة المحكم
الإغلاق، وكان فى يدي كوب شاي زجاجة ساخن ويصعد
منه بخار خفيف ولكنه لم يكن محرق الطعم بل مقبولاً
على اللسان ومنعشاً لأحشائي الجافة.

وكانت تجلس، أمامي، على شلّة مرمية على الكليم
الأسبوطى، وفى حضنها الطفل.

حدستُ تحت الجلابية الكستور المفتوحة الصدر متانة
الجسم القبطى ولدونته وانسيابه راضياً شبعان ومرتاحاً،
كأنه من حجر الديوريت العريق الحار داكن الخضرة.

لا بد أنني قلت لها - هل قلت لها؟ - اسمي، اسمي الحقيقي.

وهل لى اسم حقيقى؟ بل هل لى من اسم أصلاً؟
وهل نسيت «قواعد الأمان» والحيطة من الانكشاف؟
لأنها كانت تحكى لى باطمئنان وثقة. بأخوة؟ بزمالة
خاصة؟ بانتماء مشترك مفترض يأتى فطرياً تقريباً عندما
نتعرف على الأسماء المشتركة؟ أم بذلك النوع من التفاهم
الجَسَدانى الفورى، ذلك التجاذب الأولى التلقائى بين
امرأة ورجل مهما اختلفت المشارب والمنازع أو تنافرت
المصادر الطبقيه أو المراجع الثقافية. كائننا - فى لحظة -
كنا قد عرفنا أحدهنا الآخر من أزمانٍ تندُّ عن القياس
والتاريخ. كنت معها أعرف ذلك الأنس الجسمانى الدفئ
المسلم به دون سؤال ودون بحث، تلك الاستثارة الحميمة
التي ليس فيها أدنى توتر ولا أهون طلب، ذلك الحس
الذى لم أعرفه بعد ذلك إلا هينات لا زمن فيها فى بيت
الشعرى اليمانية القادم فى الزمان.

كان الولد يرضع من صدرها الصغير الذى يبدو
عذرياً، ببراعة كاملة.

قالت لى إنه بعد الغارة الأخيرة على البيّاصة

والطورييد الذي نزل فى كوم بكير وترك حفرة دائرية
عريضة امتلأت بالماء الراكد الثقيل فيه لون الدم الباهت
القليل، سافرت أو هاجرت عند أقارب زوجها فى دمنهور،
قالت لى إنه نجار على رصيف الفحم فى المينا، وقالت إن
ميخائيل وأشارت إليه بحنو خفى ولا مبالاة - أو ربما ما
يبدو أنه ضجر قليل - وهو يرضع، كان بعافية، جداً.
ولكن إدلّعى سى شنودة أصر على أن تسافر به بعيداً
عن الخطر. وقالت إن الولد، قبل أبو حمص بشوية، بدأ
يشهق وكان تنفسه ثقیلاً حتى أنه يا قلب أمه ازرقّت
شفتاه، وقالت إنها أيقنت أنه سيروح منها، فى الطريق،
قبل أن يصلوا إلى دمنهور، وإن القطار المزدحم المختنق
بالناس كان يمضى فى سكتته دون أن تعرف هى ماذا
تفعل بابنها الذى يموت وقلبها الذى يتدهور ويغور وكان
جيرانها فى القطار يتصعّبون ويقولون لها أن تبلل شفتيه
بقليل من الماء وسمعتهم يهمسون أن سقاية الميتّين ثواب
وله أجر عظيم.

قالت إن الولد لم يكن قد تنصّر بعد وإنها قالت

لنفسها سيموت دون تعميد، ضناى لن يذهب أبداً إلى
الملكوت ولن يرى وجه المسيح وسيبقى فى الظل المعتم
على الأبواب بين الجنة والنار إلى أبد الأبدى وإن أبانا
فيليبوس من الكنيسة المرقسية كان قد حكى لها الحكاية.
قالت إن يسوع نور لها قلبها مرة واحدة ولم يكن ما
عقدت عليه عزمها منها هى هى، بل من المسيح.
وقالت إنه لم يكن فى القطار طبعاً، ماء مُصلى عليه.
وليس هناك شىء طاهر إلا، ربما، شىء واحد.
استنجدت بالناس حولها تطلب أى شىء حاد وقاطع،
مطواة، موسى، سكيناً، شفرة، أى شىء، فاقترب منها
شيخ يعتمر عمامة صغيرة بيضاء كالفل على اللبدة
الطرية، قالت لى إنه كان طول الوقت يقرأ القرآن بصوت
خفيض كأنه يدعو الله أن يُنَجى الطفل الرضيع، وأخرج
من جيب جلاببه الطويل جراباً فيه موسى حادة وقال لها
خذى يا بنتى باسم الله، على خيرة الله، قالت إنها خلعت
عنه الجلابية والفانلة واللباس والشراب جميعاً فى وسط
زحمة الناس فى القطار واحتضنته عارياً تماماً. ودون

تردد لحظة واحدة جرحت ثديها وعندما تقطر الدم رشت
على وجه ميخائيل قطرات منه وهى ترسم عليه الصليب
وتهمس له: عمّدتك باسم الأب والابن والروح. عمّدتك
باسم المسيح معمودية كاملة يا ميخائيل يا بن بطنى يا بن
شنودة النجار. يارب خلّه مستحق النعمة واجحد عنه
الشيطان وطهر روحه وجسمه من كل شر وكل خطيئة.
مولود من جديد يا ميخائيل يا بن نجية يا بن شنودة يا بن
المسيح له المجد والقوة والملكوت أبد الأبدين. ومسحت
رأسه بنقطة دم ونقطة لبن.

قالت إن الولد قد هدأ واستراح بعد أن ألبسته وأخذته
مرة أخرى إلى حضنها وإن الجرح على ثديها قد برئ
بمجرد أن غطته عن أعين الناظرين، وإن الولد قد برئ
بمجرد أن راح فى نوم عميق.

ثم قالت إن الحكاية كلها قد مضت وانقضت وإن
زحمة الهجرة والبعد عن البيت والعودة بعد شهور
للإسكندرية شغلت بالها وإن فرحتها بشفاء الولد أنستها
تماماً كل ما حدث فى القطار، هكذا، حكمة ربنا، ولكي

يظهر لنا مجده.

قالت إنه في أحد التناصير ذهبت به ومعها أبوه وأقرباؤهم إلى الكنيسة المرقسية الكبرى لتعميد ميخائيل تعميداً صحيحاً. وفي وسط صريخ الأطفال وترانيم الشمامسة وموسيقى الصنوج وضرب النواقيس والتراتيل القبطية والعربية وتهليل الشعب وتبريك القسيس وهو يُغَطِّسُ المُعمدين في الماء المقدس واحداً بعد واحد بالترتيب، جاء دورها وتقدمت بالولد إلى أبونا وهو يهم بأن يُغَطِّسه في الجُرن الرخامي الكبير. توقف أبونا فيليبوس وشُلَّت يداه فجأة وهتف: يا يسوع. لك المجد والقوة والملكوت إلى أبد الأبد.

لم يكن في المعمودية قطرة ماء.

الجرن العميق الذي كان مترقراً بالماء المقدس منذ لحظة والذي تعمد فيه، في التو والحال، أكثر من عشرين طفلاً، كان خالياً لامعاً تام الجفاف.

نظر أبونا فيليبوس إليها وإلى الولد، بصرامة أبوية،

برحمة قاسية وقال:

- إيه الحكاية يابتي؟ الولد متلبس بالشيطان. طب هو برئ بلا خطيئة. ما تكونيش أنت خاطية يابنتي؟ ربنا كبير ومحبة المسيح من غير حدود.

عندئذ فقط، قالت لى، أدركت ما حدث. وقالت للقسيس عن الحكاية كلها.

كان الولد قد تعمد بالفعل، وأصبح مؤهلاً للملكوت، بدم ثديها ولبنه.

مسح أبونا قيليوبس على رأس الولد بمسحة زيت الميرون وقال:

- مبارك باسم الرب. روحى يا بنتي صلي. معجزات يسوع من غير نهاية. روحى يا بنتي صلي. معاكو بركة المسيح. الولد جاحد الشيطان ومعاه قوة يسوع.

كنت أرى ضوء الشموع يهتز حول جرن المعمودية الرخامى وأسمع التسابيح الهللويا والهوسانا فى فرح الإيمان وبهجة المعجزة وقد عاد الماء المبارك ببطء، وحده، من غير أن يصبه أحد، من غير أن يأتى من أى مصدر منظور، يصعد فى الجرن المصمت الرخام.

وكأنما قلت لنفسى إننى كنت أنا أيضاً أومن، ولا
أصدق.

عندئذ فقط رأيت أن ثديها الأسمر الغض كان فى قم
ابنها طول الوقت يمصه بصوت مسموع ونهم راض
مستريح، وهى تسنده إلى حضنها وترضعه بحركة فطرية
ليس فيها أدنى شبقية، وكلها شهوية مع ذلك، ورأيت ثم
ندبة طولية رقيقة على استدارة النهد الطرية، أكثر
بياضاً، قليلاً، من لون الجلد الخمرى الناعم المشدود.
وأثارنى الصليب الذهبى الدقيق النائم على الوهدة الخفية
من منبت النهدين.

كان النداء يأتينى من الخارج: «نواعم يا غُرَيْبَة» وكانت
الغرفة دفيئة وخمة نصف معتمة نصف منيرة تهتز الظلال
فيها فى أول الصبح الباكر الغابر الحاضر والمطر يتقطر
على خشب الضلف المواربة بصوت رتيب واضح البلب،
وكانت أمى نائمة مازالت، ولم يكن أبى هناك، فأين كان؟
هل كان محبوساً فى تلك القضية التى لم أعرف عنها إلا
بعد موته؟ وهل كانت أختى عايدة هى التى تضمها أمى

إلى صدرها، رضيعاً مازالت، دقيقة الجسم وسمراء
مغضنة الوجه وأحبها منذ شهورها الأولى؟ هل كنت
صغيراً إلى ذلك الحد؟ كم؟ ثلاث سنين؟ أمممكن؟ أم أن
تخايل الذاكرة الطفلية تلعب بى؟ طعم «الغريبة» الحلو
الدسم وهى تذوب فى فمى وتملؤه بلدونة لبنية وعجينة
متماسكة وفيها ذرات محسوسة من الدقيق المسكر
المحمّص المخبوز المعطر بماء الورد.

كنت أضع الكرسي وأشبّ فوقه لكى تطول أصابعى
صفيحة التوفى وكراملة نادلر التى خبأتها أمى فوق
سطح الدولاب العالى بجانب اللحاف والمخدات المخصصة
لضيوفنا الذين يأتون من الصعيد، وكان ورقها الأزرق
ملتصقاً بدوران صفيحها، ملوناً، وعليه صورة كومة
منهارة متراكمة من الحلوى الكروية والمستطيلة والمضلعة
الجوانب حمراء وصفراء وصهباء ونصف شفافة مشبعة
بالبياض فإذا نالتها أصابعى جذبتها بحرص وفتحت
الغطاء، وأنا مازلت على الكرسي، واسترقت قطعتين
وقاومت الثالثة حتى لا تنكشف الجريمة التى كنت - على

طهرانيتى ومسيحيتى - أنسى أنها جريمة أصلاً، تأرجح
الكرسى تحتى واهتز وأحسست الأرض ترتفع إلى فجأة
بسرعة خارقة تصطدم برأسى وكان لصوت الصدمة
هديد كأن العالم ينقض. ولكنى على الفور نهضت دون أن
أعبأ بالدوار ولا الألم، وأعدت الأمور إلى نصابها، ولم
أنس غنيمتى من الحلاوة، فهل كان الحلاوة دائماً غالية
الثمن، وعذوبتها لا تتأتى إلا من امتناعها ومنعتها؟

- أنا محمد محمود ياكب؟ إنت محمد محمود يا كب.
ومع الضحك والتهليل الذى كان الولد يتطلبه أيضاً،
فقد كانت نسبته إلى صاحب اليد الحديدية إهانة لا يقبلها
إذ يشب فى بيت يتقاسمه الولاء لمصطفى النحاس من
ناحية، ومصر الفتاة أو البرنس عباس حليم من ناحية
أخرى.

كان أبى هو الوفدى العريق أما أخوالى يونان وناثان
وسوريال فهم المحدثون المتشيعون للجديد.

أما الولد فيرفض بكل جد ودون أدنى تنازل أن يشبهه
بالديكتاتور.

كان الثعبان الشيخ - شيخ الثعابين - ينزلق ببطء
على أرض الفسحة الترابية الواسعة التي يدور في قلبها
السلم الخشبي العريض القديم.

وكان ينظر إلى بثقةٍ واطمئنان ودون لهفة، عيناها لا
تطرفان وهو يتلوى على الأرض التي جفت الآن وتشققت،
هادئاً ينسال بجسمه المدور السميك الملفوف، لا ينتهي
انسيابه على الأرض، متجهاً دون عجلة إلى جحره
الواضح المعمور تحت الحائط الحجري العتيق.

احتميت بجسم العربة الكارو العالية ذات البطن المكور
العميق معلقاً بين عجلتين هائلتين ترتفعان شاهقتين
وضخمتين جداً، وكان الحصان الذي دفن خطمه الطويل
الجسيم في مخلاة العلف يحمم بشدة ويزفر بغضب.

كان الثعبان قد انزلق بهدوء وسلام، اختار مساره على
التراب بتؤدة، صاحب البيت ونحن جميعاً غرباء، يحتملنا
ويقبل حضورنا الذي يعرف أنه حضور عرضي وعابر إلى
زوال.

وكان الفم الذي يرضع لبن الحزن والغضب من النهـد

الخئون، ظامناً - وما زال - إلي اللبن والخمر والدم النقي
الطهور.

الكوبرا الملكة الناشرة جناحيها في حنان. عصيرُ
النهدين سُلَافَةٌ قاتلة هي ثمن الألوهية وسمّ الخلود.
في عينيها نظرة زجاجية مكحولة إلى الأبد وثابتة
محفورة على الحدقتين.

كنا نذهب ليلة العيد أنا وأختي عائدة إلى الفرن في
شارع ١٢ نستعجل صواني الكحك والبسكوت والغريبة،
ونقول للفران إن أمي تسلم عليك وتقول لك إننا لن نرجع
إلا ومعنا صبي الفرن وعلى رأسه الصواني الممتلئة
الفوّاحة بعطر الطيب السخن الطالع من النار. ويشخط
فينا الفران نصف جاد نصف عارف أننا لن نمشي إلا
ومعنا غنيمة العيد ووعد، سعيداً هو أيضاً بعيدنا نصف
فرح لفرحنا ونصف راضٍ بما يشغل في جيبه من فضة
العيد.

نلعب قليلاً، إلى أن تنضج صوانينا، في الفرن الفسيح
الدافئ الممتلئ بشوالات الدقيق المربوصة في الظلمة

الداخلية للفرن بعيدا عن الفوهة المشتعلة التي تنز فيها
النار أزيزاً متراوح النغمة لا يخيف وإن كان يهز القلب،
أكوام الشوالات طرية تضغط على بعضها بعضاً فتنبعج
حناياها قليلاً بنعومة. والترام فى الشارع يصلصل بهيجاً
ومنيراً وخالياً تقريباً، وكنا نتكلم كالكبار ونحكي الكثير.
ماذا كنا نقول؟ أية حكايات تلك التي كانت تشغلنا
وتهمنا وتثير روحنا؟

أى صفاء للروح الصغيرة التي مازالت تغمرنى
وتحفزنى بالأشواق. الصفاء الذى أبحث عنه طول العمر
أجده ويفلت منى باستمرار.

كانت نظرتها طويلة متأملّة. ماذا كنت أقول؟ تلك
النظرة النسائية الخاصة التي لا يعرف مغزاها إلا
الرجال. قالت:

- إطمئن يا خويا. إنت وصاحبك فى بنّ عينى الاتنين
من جُوه. بس خلّوا بالكم برضو. وربنا معاكم. ربنا
بيارككم. مانا وشنودة والحتة كلها عارفة. ولا فيه حد
حيقدر يهوب ناحيتكم ياخويا. ربنا ينولكم مقاصدكم

ويُنصر بلدنا على من يعاديه.

ماذا كانت تريد أن تقول؟ هل كانوا كلهم يعرفون؟
وكانوا، كلهم، إلى هذا الحد حريصين علينا، وهم حقاً لنا
الحماية والأمن المكين؟

لم أقل شيئاً. فهل كان صمتي، وحده، خيانة،
واعترافاً؟

كان صوت الشيخ رفعت في رمضان طفولتي يترقرق
من صناديق الراديو الكبيرة ذات العين الواسعة المنيرة،
في الدكاكين والقهاوى والبيوت المفتوحة الشبابيك قبل
مدفع الإفطار، صوتاً سلسلاً وجميلاً ومُنذراً، بحزن، من
عذابات الخيانات والكفران بالنعيم، بطيريك آخر وهو، هو
نفسه، صوته أبويٌّ وعجوز وحنون ومتعب من عبء الرحمة
للخاطئين، ومع وجع الإيمان يقبل صرامة العذاب الحق
المُحيق. هذا العطف والحزن الربّاني الشفيق الذي يملأ
علّ شوارع طفولتي وهواجسها وآمالها في غيط العنب،
أين هي الآن مني؟ وهل أستطيع أبداً أن أبتعث من جديد
هذه الجنّات الواعدة البعيدة مفتوحة الأبواب عن كَرمتها

وموصدة في وجهي إلى أبد الأبددين؟ وهذه الأشجار
المتقلة برمان اللبن والعسل والمرّ، والخمر الصهباء التي
يشعشعها لي أبي بماء حنّوه ومحبتّه ويسقيني، وأنا طفل
غريب، فوانيس الغاز مضلّعة الزجاج متقدة أشعلها لنا
عفريت الليل بعصاه الطويلة التي يقطع شررها، ثم
مضى في مملكة ليله التي لا نعرف لها حدوداً. من أين
جاء؟ وإلى أين يمضي ويترك لنا حبات النور، فاكهته
المهتزة الغضة على شوارعنا الناعمة الغامضة التراب،
أين هي؟ والبيت الخفيض جنب بيتنا، من دورين فقط،
مقفل دائماً وغريب ولكننا نعرف أنه معمور. نحس الحركة
الحية فيه ولا نرى سكانه أبداً، نوافذه لا تنفتح لا يروح
بأسراره قط. دائماً مكنون على بحيراته الشاسعة الخفية
الساكنة الماء وعلى أهل مملكته البنات الطيور اللاتي يأتين
مرة واحدة كل عام ويخلعن ريشهن فإذا هن الحور الخود
لا مثيل لجمالهن في الأرضين. أين ذهبت البنات؟

قوة حضور الذكر تنقض القلب.

كل الآفاق التي طاف بها الحلم ولم تكن قط مواقع

للأقدام. الشطوط فسيحة الرمال على مياهٍ ساجية عذبة لا
نهلت منها ولا رددت نفسى عنها، والبحار التى لم تطفُ
عليها أشرعتى حتى لو هبت بها رياح أشواقى،
والشوارع المبلطة بالحصى المدور في القرى الصحيرية
المستكنة بين المروج الخضر تحت شعاب الجبال وعلى
سفوح المراعى تجرى فيها قنوات وجداول شفافة ثلجية
الماء والأعمدة الضخام مكسورة الأضلاع أحجارها
الهائلة يترعرع على خشونتها عشب الربيع النضير لا
يعيش إلا قلائل الأيام، أنقاض لا تندثر وقوة الزمن لا
تكسرهما. فاضت نفسى، ولم تُشفَ، بحبٍ لا أدري ماذا
أفعل به، ولا ماذا تفعلين.

كان المطر يسقط بلا انقطاع على خشب الشباك الذى
يشبه المشربيات، له وقع متصل رتيب، طوال الأيام الستة
الماضية.

أما الشوارع الراقية فى الرمل وحول ملعب الملك وفي
الحى اليونانى فقد كانت نظيفة تلمع ولخيرير الماء المتدفق
صوت بهيج، أما الحوارى التى أخوض فيها إلى الربع

القديم فى بحرى ثم إلى بيتنا فى راغب باشا فقد كانت
بركاً موحلة وما زال الطين فيها ملبداً وشكله شرير.

رخام متسائل يبض بعريضة اللحم الشبقي أعمدة تميد
بها الصخور ويسندها ظلام القلب العنيد كثافة العصائر
الجسدانية تنزّ من شرخ الحب العريق وما زالت التيجان
المرمرية المكّلة بأغصان العنب الخجري تسقيها خمر
الكروم المكنوزة أبداً لا تسيل تواجه الأفق بصمت وتُسائله
بصمت صروحاً تتحدى السنوات والحب والدهور ولا
يعنو بها زلزال الإنكار تكسرت نفسى معك على سلم
الرخام الأسود المستدير وأنت تتعثرين فى شبّاك الرفض
قوية الخيوط غير مرئية ذراعك فى يدي نحيلة غصنا
مورقاً رقيق العظام كما هى دائماً فى حلمي لم أكن قد
قبضت عليها قط وعلى طول العمر جرأة التقارب بينهما
ليست غير مألوفة الحلم هو الحقيقة الوحيدة فى عرفاني
والحلم لم يحدث قط قلت دعني دعني الآن وجهك فاكهة
مضرجة بدم الشجاعة هل كان أيضاً دم الحلم الذي لم
يُسفك قط سوائل الغضب المحسوبة الانسكاب تطيح

بالحبوس مرارتها لا تطاق أصابعي وحدها من غير
إرادتي تزيح خصلة من الشعر عن تاج الجبهة الناصعة
مسّ الشعر الخصب واندفاق الدم في شرايين الشوق
المفتوحة حتى الآن يدي ورقة شجر خفيف النسيج
أسقطتها أصباح الشتاء متقبضة الأصابع على سماء
مستغلقة أدحضها ولا تموت في العتمة المحيطة ليس إلا
نورٌ يحيط برخام وجهك المكسور وجسدك القائم شامخاً
ومليئاً رغم الاندحار طقوس النكث وإقرار الإيمان مرة
بعد مرة بلا انتهاء كل صبح وكل مساء وصوتك منحة
وذبيحة.

من ثلاث سنين لم أكن قد عرفت بعد أن أبي قد مات
فجأة في ليلة ديسمبر قارصة البرد ولا أن كل مورد
للرزق قد انقطع فجأة ولا أن الجوع حرفياً كان مهدداً
وماثلاً ولم أكن قد عرفت بعد كيف تلطمت في تعليم
الأولاد الصغار في بيوتهم ألف باء الإنجليزية ومبادئ
الحساب ولا كيف طرقت الأبواب وكتبت الطلبات بحثاً عن
لقمة العيش لى وأمى وأخواتى الأربع ولا كيف اشتغلت

بعد ذلك وفى الحلق غصة لا تزول مع الإنجليز الذين كنت
أمقت عساكرهم وفحشهم فى البلد فى ١٩٤٢ كنت ما
زلت فى أولى سنوات الجامعة وأظن نفسى شاعراً
وعاشقاً وأحب نوريس فخري الفخور شامخة الصدر
وأموت من المرارة والوجد فى ظلام الوحدة وراحتها
السرية دون أن أقول لها أو لأحد كلمة واحدة. كنت
رومانسياً أعرف شيلي وكيتس وناجى وابن زيدون ولا
أعرف من التنين إلا ذهبه الأصفر الساطع فى القلب
مُخايلاً المستقبل المندثر البعيد. وبالمناسبة اشترى لى أبي
بدلة «شارك سكين» بيضاء تتموج نصاعتها الحريرية
المنسدلة بانسجام وكرافته حمراء منقطة بالأبيض وجزمة
بيضاء على بُني ذات نعل كريب عال ومريح وطري ينزل
بي قليلاً عندما أخطو على الأرض كأنها خف جمل ولم
أكن قد عرفت بعد أنه قد مات فى آخر هذه السنة .

كان روميل قد توقف فى العلمين ولكننا كنا قد مللنا
الهجرة إلى أخميم ودمنهور والطرانة، وقلنا سنبقى فى
الإسكندرية، خلاص، مهما كان الخطر، ربنا كبير، وكنت

أمقت الألمان كما أمقت الإنجليز سواء، وقلت هم في البلا-
سواء. في السادسة عشرة كنت صاحباً وليبرالياً ونباتياً
ومن عشاق روسو وقُصيري والسيريايين ولم أكن كبير
الاهتمام بأخطر الأحداث في آخر هذا النصف الأول من
القرن العشرين، كنت فقط قد حزنت جداً لسقوط باريس
التي أحببتها من كتب أناطول فرانس وزكى مبارك ومحمد
الصاوي محمد وموباسان وكنت أحلم أن أعيش فيها
معنى المعرفة والحرية ولم أعرفها قط إلا بعد اكتمال العمر
زائراً مشغولاً يرثي أحلام صباه.

كان الإنجليز قد انسحبوا من ثكنات مصطفى باشا.
تركوا فيها قوة رمزية وكانت أعمدة الدخان قد توقفت عن
الصعود من القنصلية البريطانية المبنية كالقلعة على ربوة
عالية بإزاء محطة الرمل قبل المستشفى الأميري.

ومع ذلك فقد كانت بنات الـ A.T.S. يتخطفن على
الكورنيش الخالي في قمصانهن البيضاء الناصعة
الصغيرة الأنيقة والجيبات الكحلى المحبوكة على الأرداف
الرشيقة، ينزلن الدرجات القلائل إلى الشط الرملي

النظيف الخاوى وإلى الكبابين المخصصة لهن فقط فى
شاطئ مصطفى باشا يحرسها البكيت المسلح يمنعون
حتى اقترابنا من السور الحديدى الذى نصبت عليه
أسلاك شائكة متقاطعة. البكيت بالبريه الأحمر وعلى
ذراعه الشريط الأحمر المكتوب عليه بالأبيض M.P. يلوح
لنا بمدفعه الصغير، بصفاقة وبرود، دون أن يقول شيئاً
ونحن نلمح الأجسام البيضاء المشوقة شاهقة البنيان
والمايوهات الداكنة المصروفة - تعيين - من مخازن
الجيش أو البحرية أو الطيران، تلمع فى شمس ظهر
الإسكندرية الشتوى وهن يغبن فى البحر المضطرب دائماً
بالزبد والموج المتقلب فى هذه البقعة بالذات.

دعانى صديقى أحمد صبرى الرسام لقضاء العصرية
فى بيتهم الصيفى - قصرهم فى الحقيقة - فى العامرية.
كانوا من أصل تركى أو شركسى وأغنياء جداً أصحاب
أراض واسعة فى البحيرة والصعيد. ونزلت من قطار خط
العامرية الممتلىء بالعساكر الذاهبين إلى الجبهة، يجر
عربات البضاعة المكشوفة وعليها الدبابات الصغيرة

الحجم والمصفحات ذات المدافع الرفيعة الفوهات
واللوريات العسكرية المرتفعة الجوانب المغطاة بالشمع
الأسود.

كان الإنجليز قد أقاموا معسكراً لهم فى العامرية
والملاحه تترقرق بموج رصاصى محمراً فى العصر
وقصور السراب عند الأفق تتخايل كأنها قائمة فى
السحاب والشمس وراءه تصب عليها ذهبها الباهت
القديم. الخيام البيضاء الصغيرة صفوفها وراء صفوف
منتظمة ذاهبة إلى مسافة بعيدة فى الصحراء، أقيمت
على الأرض العالية الرملية من وراء قضبان السكة
الحديد ومن غير سور يحيطها ولا حرس ولا شىء،
والعساكر على السرر النقلة خارج الخيام يقرأون كتبهم
ومجلاتهم بهدوء فى نور النهار أو أنصاف عرايا يحلقون
ذقونهم - ربما لتزجية الوقت فقط - على مرايا يدوية، أو
متمددين فقط لا يفعلون شيئاً وينظرون إلى السماء.
التفت إلى ولد منهم لا يزيد عنى فى العمر إلا قليلا ونظر
إلى البدة الشاركسين اللامعة البيضاء والجزمة الكريب

المُبِيضَة بعناية، بما يخيّل إلى أنّه قليل من السخريّة
والاستهانة والحسد، ربّما، نظرة المسافر بعيداً من غير
رجعة، ربّما، إلى المُقيم الكسول، وفي الدنّيا كلّها فجأة
بعد رحيل القطار البطيء هدوء العصر الشامل والصمت
الذي تؤكّده أصوات المعسكر القليلة الخافتة في الخلاء،
والريّح الملحّية تهبّ ويتموجّ لها سطح الملاحّة الشاسعة
بمويجات صغيرة ومع حسيّ بأنّ معظم هؤلاء الصبيان
سوف يذهبون لمقابلة الموت الوشيك وأنهم كانوا يعرفون
أنهم أولاد الموت فلم أستطع أن أرفع يداً التحيّة الصامّة
التي تصوّرت أنّها رغم كلّ شيء من حقهم. ألم أقلّ إنّني
كنت رومانسياً وصبياناً القلب؟

وعلى الجانب الآخر من السكة الحديد كانت خيام
البدو غير بعيدة، منخفضة الفتحات وسوداء معمولة من
جلود المعيز الداكنة شعرها أشعث ملبّد وناصل عند
الأركان، وعند معاقد الأوتاد الصغيرة المشدودة بحبال
رفيعة بين الأرض والخيام، وقد وقفت بضع جمال واطئة
ولكنها كبيرة السنم تجتر عند بقايا الكوانين التي ما زال

جمرها محمراً يتصاعد البخار من قدور سوداء منتفخة
البطن منصوبة عليها، والمعيز تتجول ببطء تقضم حرشات
النباتات الشوكية الجافة. ولم يكن هناك أحد.

بِتْ ليلتها في سراي صديقي أحمد صبرى ورجعنا في
اليوم التالي بسيارتهم الباكار يقودها السائق بالكاب
والزى الرسمى، وعندما درنا حول جانب المعسكر رأيت
صفوفاً من اللوريات الضخمة المهمة مغطاة بتراب
الصحراء فوانيسها مكسورة ونوافذها مسدودة بالكرتون
وأرقام لوحاتها المعدنية ممسوحة، وبجانبيها مصفحات
صغيرة صفراء مائلة على جنوبها، فتحاتها الأمامية أفقية
ضيقة، يبدو زجاجها أسود اللون تومض عليه انعكاسات
أشعة الشمس بدءاً، وسلاسل عجالاتها الحديدية مفكوكة
مرخية على الرمل وبعضها عليه شبك التمويه الخضراء
المقطّعة الخيوط. وانتبهت لأول مرة إلى المدافع المنصوبة
على قواعد خرسانية مربعة وأفواها مسدودة بما يشبه
الأكمام اللاصقة أو الطواقي المحبوكة الاستدارة بالمطاط
والمعمولة من الشمع الأسود اللامع بزيت التشحيم،
وبجانبيها صناديق خشبية مرصوفة بنظام دقيق وعليها

حروف وأرقام كبيرة بالأسود على لحم الخشب العارى.
وعدنا - كما لا أنى أعود - إلى الإسكندرية
شطّ اسكندرية يا شطّ الهوى.
أهل اسكندرية رمانا الهوى.
شطّ اسكندرية..

يتعامل الواحد مع التخاييل التي تفتصب لنفسها وجه
الذكريات ويزورّ عن الواقع فكأنه يعانى الواقع ولكن لا
يتناول إلا جسد الحلم لُقى الحلم غير معدودة وتقلت كلها
من بين الأصابع المشعوفة فما قيمة الدموع المذروفة لكل
الحرانى والمقهورين الأحياء منهم والأموات بلا تبرير وثم
توق رومانسى معكوس إلى الموت وإيمان به مع الترحيب
والانتظار بل دعوة ونداء بأن يجىء قريباً جداً عند
المنعطف التالى نوازع الخلود سِنان حادة تنخس الفلذة
النابضة ولا همود هناك وعقود اليشبّ والعقيق والمرجان
تلتف بالأفخاذ والسنيقان أفعوانات بازيليكية وأسماك
الأنقليس ورقط الوشق على شاشات الحواسيب المكهربة
بخطف الأرقام بالملايين والحروف التي لا يقرأها أحد ما
جدوى الرحمة والحب فى الخضم الذى يطفو عليه كوكب

الأرض مياه التدفق التي تجرف في سكتها العيون
والذكور والأرحام المبقورة والمجبوبة والمبتورة الأوصال
ينعق الوقواق على ربوات الردفين المكشوفة التي تسوخ
بين عواسج العليق العزف على فيولينة الجسد أشرطة
نباتات ملتوية وأرجل عنكبوت حريرية ملتفة تنهل من اللبن
الأسود الغنى الطعم تنز به محركات اللوريات الهائلة في
هذا اليمّ الذي أنا فانا يضربه المحاق والجفاف ثم يemor
بالطوفان إذ ينطلق إلى الداخل في عالم الجسم الممزق
المطعون وسمادير سوسن المستنقعات نفاذ العطر تفغم
أفواه السعادين الظمأى التشوهات المحكومة والتقلصات
المنتشية وأمجاد الهوسانا وتسابع اللحم النازع نحو
الملكوت النهود المضمومة تبض من تخريجات الدانتيل
وشبابيك المشربيات وتقضمها أنياب الوزعات والعرس
المنسلة بين غيطان القطن والذرة وعلى تراب السكك
الناعم تغوص فيه الأقدام الحافية الغزال المضروب الدمية
الأبدية مفتوحة العينين لا تطرفان مصبوغة الشفتين بدماء
الفرائس القانية التي لا ترتوى وبعد أن تتعاقب الأحلام

وتنهار ولا تنى تقوم من جديد فى تلاحق شرائح اللحم
الممزع المشبوح على شواهد الطريق يأتى الخوف بل
الفرع المخبوء بعناية من ذلك القاتل العدو الداخلى الذى
يسكن الآن فى المكامن الحريزة بين الضلوع البيلسان
ليس للغريب كما قلت وأنا غريب لا أعرف أن أصل رحمى
أين رحمى؟ لا أعرفهم شقُّ الجميز الأحمر جاف على دمه
مفتوح أبداً برودة الغوص فى عالم الجنين بين الأزرق
والمُحمر والقلب حمامة صفراء الزجاج الأسود اللامع هو
تواطؤ سافر على ذرى ناطحات فوق شاطئ سیدی بشر
المستباح للابتذال اللباب يدور يوثق أنشوطته يعتصر
الخصور التى تفيض على كثران الرمل الهوار والحُب فى
هذا الخضم يصب وينحسر رغبةً شبقاً حساً بالشوق نحو
الجسد الآخر نحو الالتصاق المحموم طلباً للنجدة من
القمع المحتوم رغبة الكوكاكولا البيضاء تغمر الحريق ولا
تُطفئ الأنفاس السُخنة إذ تهب لاهبة تلهث على حصون
الحس المتوفز الذى لا مَنعة فيه بخور العندل والدارصينى
والمرّ الأحمر أبيضُ النسق يصاعد فى عماية الوهدات

العميقة دوائر غير كاملة الاستدارة أبداً ما تنى تنن شوقاً
للنهاية البداية بلا بدء ولا انتهاء الأحشاء مُصوَّحة تحترق
وتحرق السَّمندر فى النار وتطسّ الماء الثعبانُ يمجّ اللبن
من فمه المفتوح ليس الآن مدعوا للمجئ بل هو مقيم.
ميتافيزيقا اللحم تتحدى الحلول والإجابات.

كانت الساعة الثامنة صباحاً يوم جمعة شاتياً، بهذا
التبكير جنّت أرى صديقى قاسم إسحق فى بيت بحرّى.
لم أجده. طرقت باب شقته على السطح بشدة ولا رد،
ووجف قلبى وقلت هل قبض عليه البوليس أخيراً وما
العمل الآن.

فتحت لى أم ميخائيل بابها، من تحت، ونادت على:

- يافندى - يا فندى - صاحبك مشى إمبارح.

- مشى إزاي؟ كده؟ لوحده؟

قالت:

- ماتخافش أُمال. ديهدى - الرجالة برضو وصلوه

لحدة أول شارع خمستاشر. وسى شنوده شال عنه

الشنطة لغاية المحطة. وقفوا معاه لغاية ما خد الترامواى.

تصورت فجأة الضغوط التي وقعت على صاحب

البيت، من ناحية أو أخرى، ربما، وأرغمته علي العدول عن اتفاقه معنا وعن الجنيهاات الخمسة الغالية أجرة الشقة الصغيرة على السطح.

— لامؤاخذة يا سيدنا لفندي. بقى صلى على كامل النور صليت لى على النبي؟ بقى إحنا برضو ولاد بلد ونعرفوا الأصول. وإحنا نشيلكو فى عينينا من جوة ياراجل. لكن بقى العين بصيرة.. وأنت كلك نظر. برضو البيت فيه حريم. آه. وما يخلاش الأمر من كده ولا كده. الحرمة من دول تطلع تنزل تيجى هنا تروح هنا برضو ما يخلاش. واحنا بقى ولاد عَرَب، دمنّا حامى. مانقبلوش على دمنّا إنه يبقى فى البيت طُلبه.. شباب يعنى لوحديتهم فى البيت مع الحريم. داحنا كُل من حاله بيدور على المعاش. الجرى ورا المعاش صعب يا سيدنا لفندي، والشرف برضو صعب. ما تاخذنيش إحنا ما نقولش حاجة لا سمح الله أبداً والله العظيم موش مُونكن دحنا رقابينا سدّادة وإنّتم ولاد أصول آه ما هو الكتاب يتقرا من علوانه، أُمال، لكنى بقى لحدية العَرَض وما نقدروش. طَبُّ دا أهل الحتة كَلَّت وشنّا. ما هو ولاد الحرام ما

خلّوش، على رأى المثل، وأنت سيد العارفين، وكُلّيتِ الحّة
بكُلّيتها وحياة سيدى المرسى قالت لغاية كده ولأ. إسمع
بقى يا سيدنا لفندى، إحنا رجالة برضو وحنوصلوك لغيبة
برّ الأمان.

عندما سلّمت علىّ لآخر مرة لحظت فجأة الزرقة
الناصلة فى وشم الصليب القبطى المورق الأطراف على
رسغها الأسمر الناعم، من الداخل. كان الولد فى حضنها
- كالأول تماما - وكان نهدها فى فم الثعبان.

الثعبان هائل الجسم ينبسط له جناحان عريضان
ثابتان فى الهواء يثب بسهولة من أعلى السلم الخشبى
الدائرى، تحت نافذة المنور، جناحاه لا يكادان يرفرفان،
حتى يحط على ذروة النخلة العريقة القائمة وحدها فى
عتمة الحوش الترابى.

ملامح وجهى مطبوعة على حدقتى عينيه الزجاجيتين.
هل كنت قد قتلت أليفته الواحدانية التى ما تنى تُبعث
حية، أب مجرد الإرادة قتلتها أم بالفعل. وما تنى تتكرر بلا
انتهاء؟

فهل هى يمكن أبداً أن تموت؟

مجانين الله

«أحرق قلبى أنوار وجودك»

السَّمْعَ والراح
دا غِذا الأرواح
والخلى مرتاح
والشجى حيران

النقوش العربية الخطوط قطع الخيامية الغليظة
الحمراء الزرقاء البيضاء جدران القماش التقليدية فى
المياتم والأفراح فى المعازى وليالى الأنس، السرادق تتدلى
حواليه حبال المصابيح المدورة من حبات زجاجية لامعة
ملونة وبذينة يضربها هواء الليل ولا تنطفئ، عقوداً
مرتخية على بطن غامض الانتساب، تفرقه بضوء جأرح
الكريات، موج جاف نافذ الوقع.

وهذا العازف، محنيا علي عوده الدافئ المستكين على
حجره بضعة حميمة منه، منبع النشوة، وأداتها، ومصبتها
معا.

لاشك تجاوز الستين، بكثير.

شعره رمادى أسود أملح، ناعم وحى، عيناه ضيقتان
مدفونتان فى نورهما الداخلى المتقد، وجفناه ثقلان هل
يحميان نارهما الخاصة؟

سحرنى وجهه المغضن بتجاعيد رقيقة، مشقوقة دون
أن تنفذ للعظم. وجه جميل ومنطو على دخيلته انطواء
نهائيا، شفتاه حادثان، فى صرامة الموسيقى التى
أصبحت هى نفسها جسمه النحيل.

لمحت ظهره القائم المشدود فى السموكنج الأسود،
والبايون تتدلى عقدته الحريرية الواسعة مرتخية على
قميص ناصع البياض.

أهذا المثال. موجود، ليس من جماعة الأخيلة؟
مؤدٌ كامل. فنى فى الموسيقى الجسد المصفى من
لوثاته إلا واحدة.

أحمل فى حناياه فنانا مؤعُوداً بلا بعث أبداً؟
منطوٍ على أكاديميته التى لقنها حتى أصبحت فطرة،
من أيام معهد الموسيقى العربية؟ كأنها طوق نجاة لا

يفوص، لكنه تجاوزها، أصبحت موسيقاه إلهاماً يومياً
وليلياً حلماً يجرى مجرى دم الحياة نفسه.

سألت فى سرى: بمَ كان يحلم أن يفعل، طوال هذه
السنين؟

وماذا فعل بها؟

فيم كانت حياته؟ وفيم انقضت؟ وهل انقضت أحلامه
- لاشك كانت هناك - أم هى ماثلة لا تمضى؟

لا أراه، لا أستطيع أن أراه، بالجلابية، فى بيت قديم
عالٍ برّاح، بزجاج ملون مترب عتيق، وراء جامع السيدة
نفيسة؟، هل مازال يأكل على الطبلية التى رافقته أيام
صباه وكفاحه، أم هجرها إلى أودة السفرة فى شقة
ضيقة مودرن؟ هل له أولاد وأحفاد، يودونه أم يصدون
عنه؟

هل اشتغل مع العوالم ولعب مع التخت العربى فى
الأفراح والليالى الملاح؟

هل طلع من شارع محمد على، زمان؟ أم تخرج حقا
من معهد فؤاد الأول للموسيقى العربية؟

أكان يوما يحلم بالشهرة والمجد؟ أم بالثورة والنساء؟

أم بالفن، فقط الفن؟

أى بمعرفة حميمة وسؤال لا يعرف حتى أن يصوغ أنه

سؤال؟

وهل أسقط ذلك كله من دمه، أم هو مقومّه، حتى

النهاية؟

ما الفاجع فى وجهه؟ وفى عمره؟

لماذا إذن هذا الكمال الكامل فى أدائه موسيقاه؟ هذا

الفنّاء؟

ألحياته غير هذا الفنّاء معنى؟

من اللاتى أحبهن؟ هل بقيت معه زوجة، فى حارة من

حوارى باب الخلق، أو الحسينية؟ فى شارع خالٍ واسع

تظله أشجار الجميز فى الحلمية؟ أم تراها، إن كانت قد

رافقته، بالحسنى أو ببلاء لا يكاد يطاق، قد غادرته إلى

حفيرٍ مهجور الآن، أو ينمو على كاهله الصبّار المسقى

بطيب الذكرى؟ فى الإمام؟ أو الخليفة؟ أكانت من حبيباته

من رقص بدنّها الغضّ المشتهى على كل تأوّه عوده

وسجعه وحنينه؟ أما كانت منهن من غنت له، فى الصَّهبة
والصبا وصهلة الخمر العتيق؟ فى دهبية على رقرقة مياه
النيل أو فى دمدمتها بموج الفيضان الأحمر البهيج
الغضوب؟

أم أنه لم يعرف من الحب إلا تلمسه هذا العود الناعم
الاستدارة وحس أصابعه المرفقة بموسيقى كأنما لا
يسمعها غيره، وكل سعيه اللاعج أن يسمعها معه
الآخرون؟

جنون الحب النهائى. الجنون بالله.

جنون لا مكافأة له إلا به، وفيه.

قلت لها: عَرْضِيَةِ الكمال. الأداء الذى لن يتكرر أبداً.
مهدر بعد أن يتحقق مرة واحدة لا سابق لها، لا مثيل لها،
ولا يمكن أن يكون. لأن خلود الكمال هنا مستحيل. من
يعرف كيف كانت تراجيديات ايسخيلوس وسوفوكليس
تُغنى. وحتى إذا عرفنا - باستحالة تكنولوجية أمكنت -
فهى مرة واحدة عند الأوج، لا تعود، تبلغ حد الأبد ثم
تقصر عنه إلى الأبد، مهما قاربته المرة بعد المرة، وحتى

إذا مست هذا الحدّ مرة أخرى مستحيلاً، فعلى نحو آخر،
ومن ثم فهو مغاير.

قالت: في عكوفك على خلود عَرَضِيَةِ الكمال هذا تفوح
رائحة المومياءات وعطن المقابر القديمة فوح الدفائن. أما
حرية الحياة، انطلاقها، عرامتها، فتعنى ضرورة
انقضائها أيضاً. لكنها لا تعوّض. يا أخى، مادام الكمال
قد تحقق ولو مرة واحدة - فما الذى نطلبه بعد؟

قلت: الكمال فى عَرَضِيَّتِهِ وفى ثبوته - الحق الوحيد.
ومادام زائلاً ومستحيلاً، فأين الحق؟

قالت: الكمال المخلد، المثبّت، المتحجّر، نسخة وليس
أصلاً، شبح، لا حق فيه. انعكاس وليس توقداً لا بد
بطبيعته أن ينطفئ. الحياة - كالأداء - غير قابلة، يا
حبيبى، للتحنيط.

قلت: كم تمنيت لو أن اللحظة - بكل حيويّتها - لا
تمضى.

أنظرى هذا الكمال فى الأداء - كمال فعل الممثل،
العازف، المرتل، كمال فعل العاشق، كمال الجنون، مرة

واحدة ثم يبيد ويندثر، أليس قاتلاً؟ هو بحده وتعريفه زائل، لذلك قاتل. ساطع كالبرق، لا يحدث أبداً مرتين. الفن - عبّر نزوات الأداء - مختلف. لمادة الفن ادعاء للخلود، أو على الأقل ادعاء للبقاء أطول قليلاً.

قالت: حتي في هذا الخلود لمادة الفن الأصلية - هل نقول هذا؟ - أو ادعاء البقاء، حتي هذا لا أعرف منه - كل مرة - إلا خبرة عابرة، غير متكررة، خبرة هي منى أنا أداء أيضاً، هي في كل مرة غير متكررة، ذاهبة أيضاً إلى غير رجوع. وماذا في ذلك؟ ألم تحدث؟ فيم يعنيني بقاءها، خارجاً عني؟

قلت: بل أفقد سارة برنار، أفقد شيكسبير الممثل لا الشاعر، أفقد أداءات جاءت وراحت منذ عهد عاد، آلاف الآلاف من الأداءات، قيان الاصفهاني ومغنوه الذين يغشى عليهم ساعة ثم تفيض أرواحهم أمام جنون الكمال. عازفات الهارب المصريات المنحوتات على الحجر، صامتات الآن وإلى الأبد، المترنمات وفي أيديهن ليرا هيرميس، والقيثارة العريقة، أين أداؤهن؟ أين كماله،

وكيف كان؟ جنود الأوركسترات المجهولون، قبل الكهرباء
والأليكترونات وقبل أديسون، أليس حراماً أن أداءهم قد
قضى وانقضى، كل مرة، انقضاء تاماً ومبرماً؟ تراتيل
الشمامسة ومزامير الأراخنة، موتسارت عازفاً
وسكّوينسات هيرمانوس كونتراكتوس، ناي بيداس
الأجريجومنتى وطرومبيتة هيرودروس الميجارى، قصائد
سلامة حجازى لا أشباحها بخرفشاتها وخنّتها المعدنية
وصداها الميكانيكى، منشدو «أبو زيد» الهلالى على
الربابة، والمدائح النبوية على الأرغول والسلمسية، عبده
الحامولى وعنان الناطفى، اسحاق الموصلى وتلميذه
زرياب، وبذل الجارية وألظ المصرية ومتيم الهاشمية وعليه
بنت المهدي وجيّداء سيف الدولة وحَبَابَة وعزة الميلاء
وخليدة المكية.. أين هنّ، أعنى أين أداء ما تغنين به وما
عزفوه؟ وكل العشاق الذين قضوا نحبهم بعد فعل للعشق
تتيمًا وفقدانا للقلب فى موت العشق.

قالت: يا مجنون.

قلت: أما لهذا الليل من آخر؟

ولا للشوق آخر.

طال السرى، وشطّت الشقة، واستحصد النأى، فأين
المراى ومتى المعاد؟

أما الرصيف والصنو فقد كانت ساحة سيدنا الحسين
ساحته، وكانت فى الخمسينيات براحاً وبراء من الديكور
الهش الذي أوقعوها فيه، ولما كنا نخرج من الفيشاوى
القديم على وشّ الفجر، مع ألفريد ونجيب وحمدي وأخيه
الأصغر عبد الله وصالح عندما كان مدرسا مازال، كان
الميدان رحبته، هو، وملكوته، تتخيل فيه مصابيح الشارع
وقد أخذت تشحب ويصفر نورها استشرافاً لإشراق
وشيك.

كان يلبس عدة جلابيب أحدها فوق الآخر ومع ذلك
فان عظم صدره المصلّع يظهر من ورائها جميعا، يمشى
حافيا على الأسفلت، قدماه سوداوان تقريبا مفلطحتان
تقريبا أصابعهما عريضة خشنة الأظافر. ويربط وسطه
بحبل غسيل.

أشعث الشعر، طبعاً، وجهه طويل داكن السمرة
وضاو.

قشِفَ الهيئة ولكنه منير وهادئ السطوع من داخله،
وخلقانه المتهتكة لا تضيره ولا تنال من حسن ما فى
طلعته.

كان صموتا، ولكنه فجأة صرخ فى هدأة آخر الليل
أول الفجر، ولصيحته صدى فى الساحة الخاوية:
- مش أنا، مش أنا، هوّ..!

لا يبرىء نفسه من إثم، بل فخور، على نحو ما،
بالانتساب، بل التوحد.

ثم انحنى على نفسه، كأنه يناجيها، أو يناجى من
يقطن فيها ويملؤه، بلا حول ولا نقلة، وهمس.

- يا حبيبى، يا بوى. يا بوى...

ثم صاح من جديد من قلب محروق:

- مش أنا. هوّ.. أنا هوّ..

أطار طائرا كان يكنّ فى صدرى.

وكلماً سمعت النداء انشرح قلبى، وندّ النداء عنى.

انطفأت مصابيح الميدان مرة واحدة، بصوت طقطقة
مكتومة متتالية، كأنما انكسرت من صرخة وجدّه ونشوته
وشقوته معا. غيّمت السماء فوقه، لم يعد إلا نور شحوب
الفجر - كأنه جُوّانى - ينشقّ عنه حبٌ عظيم.

- يا حبيبى.. يا حبيبى..

سمعتها منه بأصواتٍ ونغماتٍ متراوحة من النقيض
إلى النقيض، أصوات نداءٍ وتوجّعٍ واستتجاد وشهوة،
أصوات أمانٍ وتحدٍّ ونشوةٍ وامتنالٍ وألم وسعادة موجعة
كأنها فى لحظة القذف الأخيرة. من أين جاءت له هذه
الموسيقىات الشتّى؟ كلها متألّفة مع ذلك يعزفها شوقٌ مُحى
وقَتُول.

ليس فيه مَوْعُود، كله حىٌّ، لا مكان فى داخله لدفين،
أقنومٌ من أقانيم نارٍ متقدّة فى مادة الجمرة الواحدة
المتماسكة، هو والأب، وروح الجنون. لم يعد ثمّ حجاز بين
الإلهام والأداء، قدّوسُ الحسين الرث الذى يضحكون عليه
ويعيرونه وتعبره النظرات بازدراء، بل أسوأ، بلا اهتمام.

جاءت نداءات الفجر وترددات لغطه فى الميدان

تصطدم بالجدران السامقة وتنزل من المنذنة البيزنطية
التي تطعن السحاب طعنة الحب الدائمة، حى على الصلاة
وباعة الإفطار: لوز، المدمس يالوز، الله أكبر، أشهد أن..
وكانت أعمدة الجامع الرشيقة المتتابعة وصحنه المكسو
بالسجاد، عتبه الرخامية البيضاء وقناديله المدلاة من
السقف العالى أروح فى حسى من نجوم الليل المشتبكة
متواترة برسالة تحمل الآن هدهدة المخاوف والهواجس
مريحة وداعية إلى سلام عزيز.

ثم تقطعنى صرخات باعة الأخبار وأقاويل الساسة
ودعوات التحريض أهرام مصرى الزمان الوفد والمرأة
المكحولة مقموطة الرأس بعصابة سوداء لها ترتتر صفيح
يبدو خفيف الوزن هفهافا، وصدرها ناهض وراء القميص
البمبى الباهت خشن النسيج فى بياض الفجر، تحت
تقوية فستانها الأسود الذى سف أسفله تراب الساحة.
تنضح عيناها بشهوية خاصة مكتومة ومفضوحة معا:
«خُذْ منى واذكر حبيبك، مَلَبْنُ والنبي، مهلبية». جاءت على
مهل ذئاب النهار وحملاته معاً عساكر المرور وصبيان

مطاعم الفتّة والكوارع والكباب وباعة السبّح والعطر
والبخور «تمسح يا بيه» العيال البوهيجية بصناديقهم
الملوّنة وزجاجات البوية والعلب المسطّحة الدائرية
القهوجيّة يرفعون الأبواب ويمسحون النصبّة وينزلون
الكراسى من على الموائد الرخام، الأكشاك السهرانة
طوال الليل أطفأت أنوارها وصحو حياة الميدان يعود إليه
أما حضور الجنون فيذوب فى نور اقتحام الصبح.

صرخته الأخيرة سمعتها لآخر مرة:

– إنت، هوّ إنت، كلّه من تحت راسك إنت.

قلت: ارتفعت الحشمة عندما تمّت شروط المحبة.

كما ينبغى أن يكون.

مباح – بل منشود – أن تتهتّك فى الغرام.

لا تهتّك قلبى حتى التمرّق، لا تهتّك، لم يعد فيه خيطٌ

على خيط. وليست الهتيكة من شيمتك.

لا، بل لسنا نفعل إلاها.

اجفنى ما شئت. ابعد عنى، اصمت حتى ما أنسمع

منك صوتا، لا تنقص محبتى. أنت السبب.

لوعة المسارّة، كأنما لا يريد أن يسمعه أحد إلاه.
يقف تحت القبّة، السماء الجرداء ليس فيها شيء.
ويهتف: يا حبيبي.
قناديل الجامع صدرت عنها فجأة أصوات طقطقة
متعاقبة، كأنها طلقات رصاص.
وتكسرت كلها.
سقط الزجاج وانطلقت شرارات الكهرباء الحمراء
الخاطفة، بقرقرة خافتة.
وساد ظلامٌ ما قبل الفجر.
قرأت في «المصري» عُثْرَ على المدعو متولى ولا يُعرف
له لقب وقد مات متأثراً بطعنة من آلة حادة، نافذة إلى
القلب. قال الشهود إن القتل كان من مجازيب الحسين
المعروفين. ولم توجد في حوزته أوراق تدل على شخصيته.
واستدل بعض الأهالي على أنه كان منذ مدة طويلة يعزف
في الأفراح مع فرق العوالم في شارع محمد علي، ولم
تصل التحريات حتى الآن إلى دليل قاطع على هويته.
كان حد السكين مرهفا وعذبا وهي تغوص في قلبي.

لا أَلَم، بل حَسَّ حاد بارد سرعان ما انجاب، خطفه برق
في عمق اللحم دفع الدم انبجاس داخلي يفرقني بسائل
ثقيل حارّ ويدي محيطة، بإحكام، بالمقبض، أحس تدوير
الخشب وملاسته ودِفْنَه.

رسائل الشوق التي أكتبها، لولا البعاد لبَلَّغْتُها فاك.
هذا القلب الأبلق الفرد تعتوره جُثُوم الذِكر فلا تنال
منه أبداً ولا تريم.

الشوق يقتله.

مازلت أحس ضغطة شفيتها حوله. أحسها تستطعمه،
بل يسرى في جسمها كله فيصبح، هو، هي، سخونة
تنفسها في الحرز، الحريز والنداوة المبلولة الحارة نشوة
تَوَحَّدُ مُنْزَهٍ عن منفعة اللذة وهو في ذُرَى منها متعاقبة
تَوَحَّدُ محتوم.

في الزمن الآخر كنت قد هتقت، مجدفا قليلا ومغاليا
قليلا بلا شك، دون أن أعى، في حُمَيَّا عَرامِ كَمالِ نشوتي:
— الآن لا أريد منك شيئا. لا منك ولا من ملائكتك، ولا
أخشى منك شيئا، لا منك ولا من شياطينك. الآن اكتمل

لى كل شىء. ولن تحمل لى الحياة شيئاً بعد. لأننى عرفت
الوحدة بك.

لا، لم أكن مغالياً فى كثير أو قليل.
هذا بالضبط ما كنت أعنيه.

كان الزجاج مقفلاً علينا يُسكت أصوات العالم فى
الخارج ويغمر جسمينا بموسيقى حسّية داخلية لا
توصف.

لم يزد حبى إلا تمادياً.

إلى أين مضينا؟

وتفرقت بنا المسالك؟

قالت: لماذا تصرّ على أن يكون الجنس إلهياً،
ميتافيزيقياً على الأقل؟ الجنس هو الجنس. لا غيره. ممتع
صحيح، وعظيم، ومرتبط بحبٍ يزيدُه غنى، ولا شك فيه،
ولكنه ليس إلا فعل الجنس.

قلت يا إيجازٍ وقطع، على غير عادتى:

- غير صحيح.

كلُّ يُجَنُّ بالله على طريقته.

صحيح أن كل شيء فيه مَسَّ الاله.

أما هذا فهو الإلهي، نفسه، لا ريب عندي.

ونشوات إلهية قليلة أخرى.

أما النور فقد كان مطفأً في كوبري السلطان، أعمدته
الحديدية الباذخة رصينة الزخرفة تلتهم في نور السماء
وحده، والنيل قد انحسر، وهبط، ماؤه رصاصي قاتم
وثقيل، قليل الرقرقة، مازالت فيه مع ذلك أثارة من
الألوهية المهدرة. هل غاضت دموع رَع؟ هل يظل حابي
مصفداً بين جسرين حجريين مُستتَقَد القوي، بعيداً عن
منابعه؟ ألم يخلف الاله القديم كل البشر من قَطْر دموعه
ومنها كان النيل يفيض؟ سيل الدموع الآن محبوس
ومتصاعد وعقيم.

كانت أنوار المصابيح الخلفية للسيارات، أمامنا وإلى
جانبينا، حمراء ميكانيكية النور متتالية تومض بنبض بارد
وتتحرك بصمت في عمق الليل، النور الأحمر يسقط على
وجهها الأسمر المستدير المحايد في جماله الأسيل، النور
الأحمر ينساب وينسال على شعرها الأسود المنسدل.

- كيمى كيمى

صرختى جرحى المفتوح.

أما الكويرى فما زال فى الظلام، كأنه هو الذى يتحرك
بنا لا السيارة الفولكس القديمة الحميمة التى ضاعت.
فكأنها، هذه القوقعة المغلقة الزجاج علينا، هى الأرض قد
ثبتت فى لحظة وتأبدت.

شعر كل شعراء العالم، الذى لن أقرأه أبدا، فى
الجنون بالله، أجوهرته الدقيقة الواحدة مغروسة مازالت
فى السويداء، أم نُرِعت منى؟ .

الدم الأسود الشحيح يتقطر من الثقب الذى تركته
ماسةُ الشعر القاطعة، ماسةُ الحب القاطعة.

أفر من وجدى.

إلام المفر؟

كم ركبت الهوى وشطت بى سكراته.

مازلت - بعد هذا العمر - تضحكنى قليلا.

لماذا تأخذ هذا - كله - مأخذ الجد، أكثر قليلا مما

ينبغى؟

أليس هذا ساذجا إلى حد ما؟

لأن هذا كله جدىّ فى النهاية، جدىّ حقا، للغاية، مهما ضحكت منه أو عليه. ثم أن مجرد سنؤالك هذا، ماذا يعنى؟ يعنى أنك فعلا توقن بهذه الجدية كلها.

أم أنت تتحفظ عليها؟

وكأنتنى أريد أن أخرج من شوارع الظلام، من تلك الطرق والسبك والحوارى والساحات التي تضيق حولى ولا أنى أذرعها ليلا فى نومى وفى اختناقات فجرى وفحشى أتخبط بين بيوتها أطرقها ولا أنى أعود إليها، وأعود، مرة بعد مرة، لا خلاص منها أبدا.

سئمت الضرب العقيم فى شوارع الحلم والنوم التي أعود إليها، برغمى، كما أعود إلى بيت متواشج الدروب متشابك المسالك أعرفها كلها حق المعرفة ودائما جديدة على غير مطروقة، أريد أن أخرج منها، أين المخرج؟

أعرف أنها وهمٌ ولكن لا حسٌ عندى إلا بوطأة الحقيقة الرازحة فيها، وأنا فى ضلالى وتيهى ولوعة بحثى عن المخرج. جاحدة هذه الشوارع المألوفة كأنها الشوارع

المفضية إلى بيتى الذى لا أجده ولا أصل إليه وأعرف مع
ذلك أنه هناك. شوارع الحلم الخارقة أكثر وجوداً من أى
موضع آخر فى أى عالم آخر.

كأنتى أريد الشمس. أين هى؟
كأنتى أريد أن أحترق فى صيفها، فلا يبقى من
جسمى - هذا المعضبى - شىء.
لأنه مكتوب أن أزهار الجنون الوحشية لا تتفتح إلا فى
الحلم.

«دعا باسم ليلى غيرها فكأنما

أطار طائرا كان فى صدرى»
المجنون

«وحبك ما يزداد إلا تماديا»

المرجى

«رأيت سمنونا يتكلم فى المحبة فتكسرت قناديل المسجد كلها»
ابن مسروق

أشواق المراهقة

«مخاطبة وعندم محقق»

عندما أوشك القطار على الوصول، وتباطأت دقات
سرعته قليلا، كانت رائحة البصل في الحقول، بالليل،
تكاد تغلبني. كان الجو حارا، والهواء شحيحا، والنافذة
مكسورة.

كنت قد قررت فجأة أن أسافر، ولو وحدي، بآخر قطار
لأحق الليلة الكبيرة، لم أكن قد حضرت مولد مارجرجس
من قبل، قلت: أسهر طول الليل في المولد، وأعود بقطار
الفجر.

نفذت بصعوبة، وسط الزحام، من الباب الحديدي
العالي مفتوحاً على مصراعيه، وكنت أنقل قدمي بحرص
وأنا داخل حوش الكنيسة بين أكوام النائمين والجالسين
على الأرض، في حلقات وجماعات وعائلات، افترشوا
الحصير والأحرمة الصوف القديمة والأبسطة القماش
المتربة، الأطفال عراة تقريبا تحت ملاءات السرير عليها

آثار البقع المصفرة، والنساء بقمصان النوم عارية
الأكتاف، والرجال بالجلابيب أو بالقائلة والبنطلون، وبينهم
العجائز يقظات متربصات لَمَمَن كَدَش شعرهن الأشيب
فى أطرافه آثار الحنة، وعليهن الطُّرَح والفساتين قديمة
الطراز مغيرة السواد.

عندما دخلت صحن الكنيسة الخاصة كانت القبة
شاهقة ومعتمة، النساء على جنب، غطين رؤوسهن،
يحاولن إسكات أطفالهن، والرجال واقفين أو جالسين على
الدكك الخشبية اللامعة، يشاركون فى الصلاة بالقبطية
والعربية. كانت أمواج القُدَّاس اللىلى تعلو وتنخفض تحت
الأنوار متعددة البؤر من السقف وتحت تيجان الأعمدة
الرخامية الرومانية الشكل. صور المسيح وتلاميذه
القديسين تبدو باهتة وتحتها نور الشموع أصفر
وضعيف. أمام حجاب الهيكل صورة هائلة لما رَجَس
يطعن الحية العظيمة، والنور الكهربائى يومض على زجاج
الصورة ويكاد يطمس معالمها.

انتظرت قليلا ثم خرجت إلى الحوش المزدحم، ومررت

على باب الكنيسة بالقس في ثيابه السوداء يصلى ويُعزَّم
ليخرج الشيطان من امرأةٍ مصروعة، ولاحظت حلل
الطبيخ وبوابير الجاز مطفأة تحتها. قلت: تعشّوا من
زمان، وناموا، أو سهرُوا في انتظار العريس.

كانت رائحة البصل من الحقول قد خَفَّت الآن كثيرا
ولكن أنفاسها مازالت معلقة في السماء المكتومة.

أصداء القداس غير المفهومة تأتي من داخل الكنيسة
والتسابيح والترانيم من المولد، مختلطة بأغاني الراديو
والمواويل وترجيعات المزامير وإيقاعات الصاجات السريعة
المجوّفة النبرة وشكاة السمسامية من خيام الأذكار وغناء
الرجال القوي الخشن من السراوقات المفتوحة المقامة على
قضبان خشبية رفيعة، بين صفوف أكوام البطيخ المفروشة
على الرمل وعربات الفاكهة واللب والسوداني والمجيلي
والكُشري، وباعة الفلافل التي تطش في طاسات الزيت
الضخمة الفوارة، ونصبات المقاهي المرتجلة بموائدها
الصفيح، ومدخني الشيشة والجوزة، والوشامين الذين تتقد
على البرك الخشبية أمامهم فوهات لهبٍ حادة قصيرة من

اسطوانات الغاز الصغيرة يرسمون بالإبر الدوارة الدقيقة،
والوشم الأزرق، علامات الصليب على معاصم النساء
وصور الشهيد العظيم على صدور الرجال.

فجأة رأيت المرأة الكبيرة القديمة مسنودة من الخارج
على الباب الحديدي لحوش الكنيسة.

كان لها إطار مذهب باهت الآن، سقطت قشرته عند
الأركان، مشغول على هيئة أزهار وأغصان متشابكة
متلوية على الطريقة القديمة بينها وجوه الشاروبيم
الصغيرة المدورة منتفخة الخدود، وكانت ناصعة الزجاج،
صافيةً بنقاء لا تشوبه هبوة، وعميقة.

كانت ساحة المولد الغامضة بالليل ممتدةً بداخلها،
كلها، بأنوارها المتراقصة: حبال المصابيح الكهربائية
الممدودة والمتدلّية، وكلوبات الغاز اللبّنية الضوء، ومشاعل
النار المدخنة على عربات الترمس، والبرتقال الصيفي.

رأيت الرجل الغريب يقف أمام المرأة، جامداً، يحدق
فيها بثبات، لا يتحرك. كان نحيلاً وطويلاً، قدماه
الخليطتان تبدوان مفلطحتين ومتربتين في الصندل المعمول

من مطاط العَجَل وحبل الليف. وكان عليه جلباب صوفى
قديم رثٌ نسيجه وخفٌ وتقطع، وظهر تحت تمزقاته جسمه
الداكن وعظامه العجفاء.

ورأيت حول رقبته الضاوية - تفاحة آدم كانت كبيرة
جاحظة - صليباً خشبياً ضخماً بأطرافه المورقة، معلقاً
بحلقة من الجلد الأسود الذى بدا لى فى أنوار الليل
المهتزة، غير نظيف تماماً.

. كان معتمرا بكوفية طويلة كالحلة السوداء تلف رأسه
وتنزل على كتفيه.

وكانت عيناه عميقتين وناهما متقدة فى الحفرتين
الغائرتين.

مَنْ الرجل، عم لاوِنْدِي؟ لا يمكن.. كنت طفلاً عندما
عرفته لأول مرة، فى أجميم. كان يسرق لى الحلاوة الشعُر
وأكَلها منه، خِفية. منذ كم سنة؟ ثلاثين، خمسة وثلاثين
سنة؟ أو أكثر. لم تتغير فيه نأمة ولا ملمح. هو نفسه دون
أدنى شك، ودون أدنى تحول.

استبدت بى الغرابة فخطوت إليه دون تردد، ودخلت

حيز المرأة الكبيرة.

كانت المرأة خاوية تماماً، رائقة وساطعة، ليس فيها
أدنى رقرقة.

بينما المولد يموجُ ويفصُّ حواليتها.

لا الرجل، ولا أنا، ولا شيء مطلقاً داخل الإطار القديم
المشغول بالورود ووجوه الملائكة الناصلة الذهب.

طلبت روحى، يا نور عينى. وروحى لك.

رأيت، مرة واحدة.

نحيلاً طويلاً. دقيق القامة يبتسم أهون ابتسامة. وجهه
شاحب وحليق وأنيق تحت الطربوش المكوى، الحاد
الأطراف، مائلاً على جبينه أقل ميل، بذوق وغندرة
الثلاثينات المرفهة الحس.

وكان جلبابه سابغاً ومهفهفا عليه، من الحرير السمى
السكروته، وعليه بالطو بلدى جبردين أسود، محكم
التفصيل، غالى القماش، ينزل على الجزمة الصفراء،
برقبة، أزوارها الدقيقة المتتالية مدورة ولامعة وصفرتها
أدكن قليلاً من جلد الجزمة.

كنت أقف وراءه مباشرة. أراه هو، ولا أراني، في
المرأة.

ليس في المرأة إله.

ثم رأيتهـا. هل هي التي في داخل المرأة؟ أم هي
أمامي، تواجهني، خارج المرأة؟

ابتسامتها لي أنا مغوية، وعيناها في أنوار المولد
صفراوان خضراوان متقلبـتان بشهوية. كانت أمامي،
فستانها الحرير السمـني، تحت الملاية السوداء الكريشة،
ينساب على جسم بض، ونهداها يرفعان القماش وتبدو
الحـمـتان منتصبـتين وراء النسيج المنسدل بنعومة.

كان شعرها ظاهراً تحت طرف الملاية، ملموما بعصابة
حمراء تقمط جبينها الناصع المدور، وكان حذاؤها على
الكعب مدبب البوز صفـرته داكنة وسير الحذاء يلف ظاهر
قدميها ويحبكه يضـغط على اللحم قليلا.

كانا يتقدمان إلى، بخطو سريع مهاجم. وكانا
متطابقين في كل شيء. جسم واحد، ثنائيا مزدوجاً دقيق
القسمة. ولم يكن هناك حولى حركة ولا همسة. تماثل تام

فى كل شىء حتى حركة الأصابع الممتدة المتقبضة التى
تمسك بى. إلا فى ضميرى المذكر والمؤنث. حتى نظرة
العينين، واحدة، فى حيز المرأة الذى ليس فيه شىء آخر.
ثَقْبٌ، فجوة، هوة ناصعة نقية مجوفة فى قلب ساحة المولد
الذى تضطرب وتمور وتعج بالناس والأشياء. فراغٌ صامت
فى قلب ضجيج البهجة والاحتفال. وكأئننى - أنا - على
التخوم. لم أعد منظورا، لا هنا، ولا هناك.

قلت: ليس هذا انعكاسا لأحدهما الآخر.

قلت: كلُّ منهما قائم لا يريم. وكلُّ منهما مخيلة، خُتْلُ.
الشهيد الرومانى كان قد ضرب الحية العظيمة على
شط النهر، تحت سور المدينة، وماء النهر كان يتدفق دما.
الحية العملاقة تنتظرنى وتواجهنى بعين لا تطرف. أمواج
الدم شربتها الأرض، سدى، هدرأ، مضيعة.

قلت: لماذا أقول قولى للمياة المنصبة؟ شفتا المياة لا
تحفظان القول.

قلت: كنت أريد المعرفة. كنت أريد الحب. كنت أريد
العدل.

سمعته، من داخل عمق المرآة، دون صوت: هذا أوان
المحاق، ومطلق الغيبة.

قلت: أشواقُ مرايا الوجود.

قال: وجدانك إياها فقدانٌ مستديم. الوجود نهاية. أما
هنا والآن، فما من نهاية، ولا من بداية.

استدارت إلى فجأة، وانحدرت الملاية عن كتفيها قليلاً.
كان فستانها معلقاً بحمالتين سوداوين، تلمعان، وكانت
سمراء، مبتلة اللحم، رقراقة، تمدّ لى أصابعها المكتنزة
الواضحة المفاصل.

أمامي، أيقونةٌ طويلة مشعة، ألوانها فضية ذهبية، على
خشب شفاف فيه شقوق لا تُرى. النور يصعد إليها من
شموع غير منظورة يغذوها الزيت المتقطر من عظام
صدرى. وكانت تغدق على معرفة لا حد لها، وتحجزني
عنها في وقت معا. وكنت أريدها. الشهوة والمعرفة معا.
وأدركت مدى تعثرى وقلة حيلتى.

قلت: طوّحني الحلم، وتخبّطتُ خلف الأخيلة، يداي
خاويتان وروحي قاحلةٌ وسخريتي ملء آذاني.

لكنها كانت تعطيني، بحساب أو بغير حساب سواء.
عطيتها مجدى وتسبيحي. ورأيت أنها محبوسة داخل
المرآة. محاصرة. الإطار المذهب القديم يحددها، وحدها،
وهى بؤرته.

قلت: أهى تتحدى الزوال؟ هل تقف فى الدوام؟
قلت: طلبت منى روحى يا نور عيني، وروحي لك.
كانت الحدود قاطعة. ما فى داخلها مُرْكُزٌ ساطعُ النور
يؤكد تَعَيُّنُها، ويثبتته. وفى هذا الداخل كان تغيُّرها هو
نفسه وحدانيته.

كانت تناديني بكلمات المحبة والحنو، وبذات الشهوة
معا، داعرةً وواقعة حبا، تدعوني، بغواية لا أقاومها، إلى
تخطى عتبة قاتل عبورها. ولم تكن المقتلة ما يُثْنِي. قلت:
«نفسى ليست ثمينة على». ولكن الخط الفاصل حادٌ ورفيع
مثل سن الشفرة وعميقٌ مثل هوة لا قرار لها. ومجاهدته
تبدو محالا. أمد إليها يدي فلا تبلغ شيئا.

ومع تموج جسدها اللدن، وتضرج الشفتين بالدم،
وعمق الكحل على العينين النجالوين الضاربتين، لم أجد

حرارة لا أدنى دفاء. كانت في داخل المرأة، ليس لها
مادة، مع تجسدها. لم يكن هناك معنى إلا خواء هذا
الداخل البريء من كل عضوية، كان ملمس فمها المفتوح
بارداً ومثيراً. أنفاسها متتابعة مخطوفة تحت شفتيّ، وبين
ذراعي استحالة التلامس مع أنها كانت تلتصق بجسمي
المنتفض. كائنني أواجهها لا أعانقها، كأنها شيء لا يُنال
قط. في مكان آخر، في موقع لا يصل إليه أحد قط. وهي
مع ذلك حميمة ومتقدة بالشهوة والمحبة معاً. لم تكن
امرأة، بل كانت مطلق المرأة، تتضرع وتتسلط، تنن
وتشكو وتتطلب، خادعة وأمرة لا راد لها. طفلتى وغانيتي
الشبيقة بالحب.

اشتعلت فجأة، وقذفت كما يقذف المشنوق لحظة إطباق
الحبل على العنق.

أوقفني داخل المرأة وقال: ومع كل المعرفة، فما من
عرفان لك قط. لأنك بلا إيمان.

وقال: وجودك داخل مخايل. فما من وجود.

قلت: إلا الحب. إلا الحب. إلا الحب. وحده الحب يحمل

وهم الوجود.

أما هو فقد كان يضرب الباطل و ضرباتٍ خفيفةً بعصاه
الأبنوس اللامعة، على وتيرة منتظمة، مع ظل ابتسامةٍ لا
تكاد تُرى وكان - تقريباً - حانياً وعطوفاً. عيناه ثلجيتان
بنظرة مسددة إلى باسمرار: ألم تكن تريد الحب؟

قلت: وأردت المعرفة. وأردت العدل. وأردت الحرية.

قال: والصبأ المقيم؟

قلت: كنت موقناً أنني سأموت قبل العشرين.

وقلت: وقبل كل شيء أردت الإيمان. عرفتُه فهل فقدته

إلى الأبد.

قال: السؤال سؤالك. والباب موصد، بإرادتك.

فلم أجزؤ - وهل ترفعت - أن أقول: لا. الإرادة

مطلقة.

ألم يقل شيخنا جلال الدين، «إن غير العاشق وحده،

يرى نفسه في مرآة الماء.» في حلم الماء، في ماء الحلم،

صورة الوجود هي استحالة الوجود. الباطن وحده هو

مُخَايَلَةُ المتعِين يُحِيقُ به العَدَم. أما العاشقُ الحقُّ فلا يرى

فى المرأة إلاً الفناء.

قلت: لا وجود عند ظهور هذه السطوة.

كان جرس الكنيسة يصلصل مليئاً وقوى الرنين،
ويقرع تجويف السماء النحاسى بدقات تُلقى كتلاً صماء
تغوص فى روحى وتخبط القاع.

أحسست أن أطراف أصابعى تتوتر وترتعش وكأنما
ينطلق منها شرر متعاقب لا أراه، يذى ممدودة حتى
آخرها، هى وحدها ضارعة، مستقلة عنى، تخرق حاجزاً
لا يلين لا يهتز لا يفتح إلا بمقدار نفاذ أصابعى منه. ثم
سقطت الأصابع، مبتورة من جذورها ورأيتها بهدوء، بما
يشبه اللامبالاة تنفصل عنى، كأنها لم تكن تمت لى بصلةٍ
يوماً.

وأحسست المرأة تشطرنى وعرفت أننى أتلاشى، ولم
أكن فرعاً بل مطمئناً وراضياً، وقلت: وليس عندى من
قول.

بيت فدير

«الزمان خيالات مقطوعة»

مازلت أرانى أسير فى الصباح الباكر الساكن، تحت
سماء لؤلؤية، إلى البيت القديم.
أسير إليه، وأنا أحمل فى داخلى شوقاً مُمِضاً وعميقاً،
وحسباً بانتماء لا ينفصم إلى هذا البيت، ولوعة لفقدانه.
أعرف أننى لن أسير إليه أبداً. لن أدخله مرة أخرى،
أبداً.

خطواتى - فى هدوء الحوش، بعد أن أغلق خلفى باب
الشارع الكبير، تحت الجميزة العتيقة - لن تحدث.
أخطوها، مع ذلك، على الدوام، من غير وصول.
أعبر عتبة الباب الرخامية، حافتها الناعمة غاصت فى
الأرض، عليها نقوش كتابات هيروغليفية كادت تمحى،
ماثلة مع ذلك تستجلب البركة تستصرخ الذكر.

أعرف أنه على هذه العتبة الخفية مرّ من قبلى بيبي
مارتان ومحمد ناجى، وراغب عياد وكامل التلمسانى،

جورج حنين ورمسيس يونان، موسكاتيلي وسند بسطا،
كاترين سُرْسُق وبولا العلايلي، وغيرهم ممن لا اسم لهم،
هولاء الذين عذبتهم أرواحهم وطوّحت بجسومهم النزوات
والمعاشق، ومفازع مجرد الوجود، وأنه هنا حُسمت
مصائر أو علقت إلى الأبد دون قرار، رُسمت أقدار
وتجسدت شطحات شعر هذا البلد.

لكن الحوش كان دائماً خالياً، من غير وحشة، مكنوناً
داخل الحيطان السميكة السامقة، بأحجارها التي تضرب
إلى الرمادي الفاتح، لون قديم، نظيف. تظله أشجار
كافور وجزورينا عفية وارفة، تنفى عنه فجأة كل ضجة
القاهرة، وتضفى عليه سكوناً، وسلاماً لم أجده في أي
مكان آخر، ربما لأنه كان يُعدّني لمحبةٍ ورضى، لم
أجدهما في أي مكان آخر.

أحجار السلالم العالية الدرجات، محصورة بين
حائطين في بئر السلم الضيقة، تبشّرني، كأنني أسمع من
ورائها طنين حياة مليئة بالقوة والوعود.

وعندما ينفتح الباب المحكم الوثاق، أخيراً، تهب على

أنفاس البيت الهادئ حميمٌ وصافية.

ما زال أعزّ مواعى.

أعود اليه - واليها - بلا انقطاع. وكأنها لم تبارحه
قط، ولم أبارحها. كل الدراما، كل الحب، كل النشوات،
كل سكرات الجسد وكل أمجاد الروح، مازالت، كلها،
فعّالة.

نادانى قلبى إليك، لبّيتّه لما نادانى..

وهل تصورت لحظة أنه قد يمر يوم من غير اهتزاز
الحنين، والحنان؟

أى يوم؟

نداء البيت القديم، نداء القلب القديم.

فى القاعة الوسطانية الفسيحة، حجر حيطانها ما زال
ببياض لحمه المبرى، دون طلاء، ودون ملاط، أرى لوحات
السجاجيد المعلقة على الحائط، منسوجة بالخط الفارسى
والكوفى، تنطق بأشعار الحب والآيات، تهزها نسيمات غير
محسوسة فتتوس برفق على جسم الحيطان. الفوانيس
العربى النحاس يتقطر منها ضوء المصابيح الكهربائية

الصغيرة بيضاء الشموع عبر ألواح الزجاج الأصفر
السداسية الشكل. يسيل هذا الضوء بمياهه الساجية
ما زالت حتى الآن دافئة مثيرة تجعلني أنتصب فجأة،
أنزل معها إلى السجاجيد العميقة الوبرة المفروشة على
بلاطات الرخام، طالما صنعنا الحب فيها، وتقبلنا في
قبضة جنونه وعريضة سكراته، بينما نافذة المشربية
العريضة تعطينا جمال العالم، ونوره، وتحجب ضراوته.
قلت: لا شيء، لا الزمن: لا النسيان، لا الجسم الذي
يناله الوهن بقادرٍ على أن يأخذ ذلك الذي حدث. انه باق،
أبداً.

قالت: يا ليت! هذا مجرد تقرير رومانسي. الزمن
يمحو كل شيء كيف نصون حبنا من سطوة الزمن.
قلت: أبداً لن يمضي. ليس فقط لأنه موضع إعزازٍ
خاص، بل لأنه يقوم في الروح، باستمرار، من جديد.
قالت: كم من أشياء تحدث، ثم تؤخذ في قبضة
الانتزاع، تذهب كأنها لم تحدث قط. فلماذا يستعصى
ذلك وحده على المضي، والغيبة.

قلت: لأنه - مهما تقطعت أمشاجه - يحياً دائماً من جديد. ويُحيى دائماً من جديد.

فتحتُ الباب بمفاتيحها، ودخلت: أحسست البيت مستوحشا، وكانت ظلمته فادحة. قلت: «لا بأس. سوف تعود بعد قليل». كنت في المدخل الذي أعرف أنه يفتح على القاعة الوسطانية، ويفضى من اليسار إلى غرفة النوم. الأنوار فجأة لا تضيء. حس الوحشة يعضّ قلبي، موجعاً، لا يبرأ، أبحث عن أضرار النور، لا أجدها، لا أجد شيئاً. كل شيء ينكرنى. أسير خطوتين، لا أرى أمامي، ذراعى ممدوتان، ومع أن الظلمة مطبقة أغمض عيني، كائننى بإرادتى أنفى الظلمة. أين أضرار النور؟ هل هى فاسدة نالها العطب، ثمار عطنة تحلت وسقطت؟ أين هى؟

أحس نفسى أشهق، وقعت يدي أخيراً على زر النور الذى يشبه أسطوانة صغيرة جداً من النوع القديم الذى تضغطه إلى الداخل. النور فى الفوانيس الكبيرة يشتعل، على غير انتظار، يعطى بصيصاً ضئيلاً مُصفرًا، يهتز،

ويخفت ثم ينطفى نهائياً بصوتٍ كأن فيه صدمة خبطة
واحدة أخيرة.

أجد الهواء يندفع إليّ، من أين؟ من النافذة، من
الباب، من السقف؟ لا أعرف. الجاكطة تهتز، تتطوح
حولى، وترتفع تحت هبوب الهواء المتضارب التيارات،
كأنما بفعل أيدٍ غير ملموسة. هنا قوى حية، وغاضبة، قد
خلت لها الساحة، حضورها لا يُرد، وعملها لا يُفصّ، ولفح
أنفاسها فيه نية غير معروفة.

أرى فى الظلمة المتقلبة حولى شيئاً أبيض، غريباً،
أحسه أثقل قليلاً من الضباب وأخف قواماً من سحابة،
بارد الملمس، ينحنى علىّ، ويلفنى.

أنادى بكل طاقاتي. كأنما ندائى ترتجُّ له السماء
والأرض.

لا يندُّ عنى صوت.

شفتاك. شفتاك فى الزمن الآخر، تبدآن باردتين
رطبتين، ملمسهما مُنعش وطرى. ثم ينالهما - معى -
هوس العشق. فيهما، تحت شفتى، كل حياتهما الخاصة،

كل حياتهما المستقلة، كل التنزى والتقلب كل الحب كل
الوهج والتلمس، كل التلاصق رقيقاً وملهوفاً رياناً
وجوأساً، وادعاً ومعايئاً، شرساً وراضياً وناعماً، مستقزاً
داعياً ومستسلماً.

لماذا يا حبيبتي لم أعرف هذه الحياة وتلك الحرارة في
شفتيك، عند حلول الزمن الأخير؟

بينما أنت في حضنى قد اختزل الكون فيك، والزمان.
رسالة شوقٍ في زجاجةٍ مختومة مرمى بها في اليمِّ،
هل ترتفع بها الأمواج وتنخفض بلا انتهاء، غير
مفضوضة، لا تعود، أبداً، برداً؟

وكالمعتاد تظل الأشواق صموتاً. من جانب أو من
آخر؟

كل الكلام أبداً بدون كلمات.

جسم البيت القديم جسم الحب القديم يحيط بى من
كل جانب. وعيون الحب النجلاء تهاجمنى وتطعننى لا
تطرف لا تتوقف.

كان رخام جسديك الخمرى الحار، فى سمرة الغروب،

معجوناً بالحب والألم الذى لا يريم. جماله قهرى شامخ،
وما أطوعه بين ذراعى، ما أنعم لدونته.

قلت لى: وقائع الحياة ليست فى شعرها، الشعر فى
النهاية لا يقين فيه. ولا اطمئنان له.
بصوتك المدرب المتقن، وثيراً ومشحوناً بطاقة جنسية
سيالة.

قلتُ لك: هو كل اليقين. مادامت الحياة - كل الحياة -
سؤالاً ليس له من مجيب.

وأنا على مشارف الحافة، فى صباح النهاية الذى لا
يحول نوره الغريب، مازلت أقول: لماذا سار كل شىء على
هذا النحو؟ لماذا؟

مازلت أريدك. وحدك أريدك. فى الشعر ليس فى ركام
الوقائع. كأن الشعر هو الواقع الوحيد عندى. فهل
استثنأرى بك فيه، أنانية، ولجج الطفولة؟ أم هو بذل
نهائى لا يمكن أن ينتقض ولا أن ينقض. مازال الحب
يفيض من قلبى، كالنزيف. أیظل يسقط على تراب هذه
العتبة المدفونة فى الأرض؟ أين زهرة الدم الحمراء

وحشية الجمرة المتوقدة بالشوق؟

كانت القبة الضخمة أمامنا، ماثلة عبر المشربية،
اسودت بفعل الزمن، تدور بها كتابات بارزة من الحجر لا
نعرف كيف نقرأها بيننا وبينها سطوح بيوت القاهرة
القديمة متراكبة متمائلة، تقطعها فتحات المناور المسقوفة
بزجاج مترب، رُكنت فيها عمدان خشب بالية وصفائح
صدئة وبقايا دراجات وصناديق وكراتين وأقفاص وققف
منبججة بالكراكيب، كل مهملات الحياة جففتها الشمس
وصوحتها ونظفتها من كل لحمها وسوراتها، أعشاش
الحمام الخشبية يصدر عنها هذا الهديل العميق، حزنه
رتيب ممل، مستمراً وعنيداً لا يسلم بنهاية أى شىء.

كان هذا يقينى.

قلت: من بين المفازع الكثيرة التي يغص بها العمر
المضطرب - على الرغم مما يبدو على سطحه من رتابة
وتمكّن - يأخذنى رعبٌ أننى لن ألتقى بك مرة أخرى،
أبداً.

قالت: حسب الشائع المشهور نحن لا نلتقى مرتين

أبدا. العودة العودة حلم مستحيل بطبيعته. كل لقاء نسيج
وحده له طعمه الخاص، حلوا أو مرا، وله مقوماته وحده.
قلت: لا، هذا الرعب يقول لى: «لا، ليس هذا. لن تلتقى
بها أبدا، بالفعل، أبداً بعد». وعندئذ يُفقدنى الهلع كل
صواب. وأريد أن أصرخ بأعلى صوتى: لا. لا. لأه.
قالت: اسم الله عليك من الرعب والهلع. إذا أردت أن
تصرخ اصرخ يا حبيبى، لكن ليس من الرعب والهلع.
فضحكتُ من نفسى، على نفسى، كالمعتاد.
قلت: ومن المفازع القديمة الأخرى أنك لم تعودى
تعرفيننى، لم تعرفينى قط. ولا يهيك هذا على أى حال.
قالت: وهُمُ التثبیت. وهم العودة الدائمة. لابد أن تكسر
الدائرة.

قلت: ومن ثم أعود إلى كلمة قديمة لك - هل قلت لك
إننى الآن أكنزها وأحرزها، هذه الكلمات - الماسات التى
لك، لأنها وهاجة وقاطعة معاً؟ - عندما قلت لى: «إننى
أحبك. سأظل دائماً أحبك» أما أنا فليست بخساعتي كلها
إلا كلمات.

قالت: أنت طالما.. طالما رددت حتى حد الهوس إن
الكلمات لا تعنى شيئاً وحدها.. أنا أيضاً قلت هذا كثيرا
لكنه غير حقيقى.

قلت: أحقّ اننى لم أقدم اليك إلا شعرا؟

قالت: وهل الشعر قليل؟

قلت: أما أنتِ فقد وهبتني سطوع المجد، ورهبته. وقدة
الحب الذى لا يطاق، وسوّرتة. مازلت أتوجس حتى من
الاقتراب بالذكرى من نور هذا المجد، لأننى أعرف أنه لا
يُطاق.

كيف احتملت فى البيت القديم عبء كل تلك السعادة؟

وكيف أستمروا فى احتماله؟

ما جدوى الكلمات ما جدوى الكلمات ما جدوى
الكلمات أريدك فى حضنى أريد أن أعرف حبك أريد أن
أعود إليه أريد أن أبدأه من جديد كما لم يبدأ قط أريد
جسد الموسيقى لحمها الملى لا صداها ولا ظلها البعيد.

قلت: سوف يأتى الصمت وشيكا. قريبا جدا.

سوف ينقضى زمان الكلام.

كنت أهمّ بأن أوى إلى سريرنا الفسيح، تحت لوحة
النسيج الكثيف الذى يصيح فيها الديك الأحمر الخيوط،
مشتعلاً، يفتح منقاره الكبير رافعاً رأسه بلا صوت، لا
يعطى نفسه راحة. كانت قد سبقتنى. كنت أعرف أنها
نَضَتْ الآن فستانها الأحمر الحرير المنقوش بالأبيض،
وأنها تخلع السوتيان البيج الصغير الذى يفيض ثدياها
على جوانبه، بشريطه المطاطى اللدن الذى يحبك ظهرها
البديع المكين، جسمها السامق اللين المطواع حُرُّ الآن،
صدمة جماله عندى، فى كل مرة، جديدة تخطف أنفاسى.
رأيت فجأة أن القرد المقدس يقف على باب الغرفة
المفتوح، يحجبه ويسده، كان فى جسمه المجعد لمعان
الجرانيت الأسود، جلده الداكن متغضن الطيات، وشعره
الكثيف يرسل شررا كهربيا تقشعر له روحى.
وكانت حول عنقه، ووسطه، عقود من الفضة وحببات
الفيروز، لها صليل على جسمه الصلب.
كان غير إنسانى، غير عاقل. وقريبا جداً منى أعرفه
تماماً، ويرانى. مدّ يديه وأطبق على عنقى.

النزوة السادسة

اليقظة في المعنقل

وكأنما تيقظت صباحاً في معتقل صحراوي.
أجد نفسي في العنبر، وحدي.. تركني كل الناس.
إلى جانبي بدلتى معلقة بمسمار على الحائط، تهتز.
وعلى صندوق خشبي مقلوب أشياء اليومية فقط: فرشاة
الأسنان والمعجون، عدة الحلاقة، وكتاب شعر انجليزي.
العنبر واسع وخاو، ليس فيه إلا سريري الحديدي
الضيق وعليه المرتبة القش الهابطة في منتصفها.
اصطدام قدمي بالبلاط له صدى.
أفهم، بشكل ما، أن زملائي - من بقي منهم في
المعتقل - مازالوا هنا، في مكان ما. ولكني أحس مع ذلك
أنهم ليسوا هناك.

كنت بالليل - في الحلم ربما؟ - قد أحسست أنني
وحدي الآن، تماماً. وأعرف مع ذلك أن هناك حضوراً
آخر. هل هي ذئاب، ضباع، كلاب الصحراء؟ أسمع
صوت خطاهم المسترقة، أشم رائحة الحيوانات البرية،

قوية ونفاذة، أنفاس هذه الحضور الفاهمة غير العاقلة،
كأنها على، في ظلمة غير كاملة.
استيقظت الآن تماماً، وقمت.
كل شيء مهجور وخاو. لا حرس. لا أحد. الصحراء
فقط.

الباب الحديدي في وسط سور السلك الشائك معوج
وموارب قليلاً.

قلت: إذن فقد خرجوا، كلهم، وتركوني؟
أجد نفسي دون عائق، في الخارج. في الصحراء.
كانت الرحلة في مراكب الليل شاقة.
هل انتهت الرحلة، وأن لي أن أحط الرحال؟
امرأة أعرابية، ملففة بثياب سود قديمة، فضفاضة
وثقيلة، حالت خضرتها المطرزة، تقف على جنب، على غير
مبعدة من المعتقل المهجور، تدعو لي: ربنا يعمر بيتك، ربنا
ينور لك طريقك.

ينور لي؟

في نور هذا الصباح الباهر، الموحش؟

أصل إلى الطريق الصحراوي، والعمال يشتغلون في
نصف الطريق بالطول، النصف الثاني شكله سخن
وطرى، والأسفلت فيه لامع السواد، ومعدات الرصف
واقفة، ضخمة الهياكل، حديدية الأذرع والبطون.

أراهم مشغولين عيني، كلهم، لا أحد يراني.

أحس أنني هارب، خرجت، هكذا، دون تصريح، دون
أمر إفراج. مازلت سجيناً وليس حولي إلا امتدادات
الرمال، بلا نهاية على الجانبين.

صحاري الوصال خاوية، فكم بالحرى بيدُ البعاد.

جاء الأتوبيس، على نصف الطريق المسفلت القديم.
هل مكتوب عليه بخط رديء لا يكاد يقرأ: الطور السويس؟
لونه الأخضر الباهت صديءٌ تساقط طلاؤه في بقع غير
منتظمة بأن فيها الصفيح المغضن المتقبض. الأتوبيس
متهاك ولكنه شغال، والمحرك له أزيز قوي. عنيد.

عبء على كتفي أنا وحدي، حرיתי، فرحتها المكبوتة

في قلبي لا يعرفها أحد.

لا مبالاة الناس. والأشياء. والعالم.

عندما صعدت إلى الأتوبيس تحت نظرات الركاب التي
لا معنى لها، بدو ملففين بالأبيض المصفر، وجنود، واثنين
ثلاثة أفندية، رثاثهم تتأكد في سطوع الصباح، وفي يدي
شنطتي الجلد الاصطناعي القديمة، مطبقة، لاحظت لأول
مرة أن جزمتي بوزها مفتوح، وأن نظارتي مكسورة
الإطار، مربوطة بسلك.

عندئذ تيقظت.

لذعة الخجل العتيق نفسها.

مهما كنت متحرراً، وثورياً حتى.

أدارى شرابي المقطوع بأن أدسه في حذائي، وأنا أطلع
الطريق الطويل الصاعد إلى ربوة المدرسة العباسية الثانوية
في محرم بك. أتلفت خلفي، هل أفلت الشراب من ظهر
الجزمة، وظهر الفتق الفاجر عن الكعب العاري؟ ونحن،
تلاميذ سنة ثالثة ثانوي، بدوي وجورج وحسن، نتحدث عن
اجتياح قوات هتلر سهول أوروبا، عن هزيمة دنكر، عن
الطيران النازي الذي لا يقهر، وأقول في حماسة لا انطفاء
لها أبداً: لن تنتصر الفاشية، هذه طبيعة الأشياء.

يا لإيمان الصبا الفاخر!

فى ٢٦ فبراير ١٩٠٧ اجتمع مجلس النظر فى الساعة الثالثة بعد الظهر فى سراى عابدين العامة تحت رئاسة الجنا ب العالى الخديوى. ووافق على ما يأتى:

أولاً : تعيين فتحى بك زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية الأهلية وكيلًا لنظارة الحقانية.

ثانياً: تعيين المستر دنلوب مستشار نظارة المعارف العمومية رئيساً للجنة العلمية الإدارية، وتخويل سعادة ناظر المعارف سعد زغلول باشا تعيين من يقوم مقامه أثناء غيابه.

ثالثاً: تعيين كل من أصحاب العزة عبد الخالق ثروت بك مديرا للإدارة القضائية للمحاكم الأهلية بنظارة الحقانية وأمين بك على رئيس محكمة الإسكندرية الأهلية وأحمد ذو الفقار بك بمحكمة المنصورة المختلطة مستشارين فى محكمة الاستئناف الأهلية.

وقالت «المصرى» مع أنباء اغتيال النقراشى باشا على

أيدي الإخوان المسلمين، في ٢٩ ديسمبر ١٩٤٨، إن وقف
المرحوم السيد محمد شريف باشا الكبير ١٥٢ شارع
محمد علي بمصر تليفون ٥٩٥١٥ يشهر مزاد بيع القطعة
٤١ بتقسيمه بمنيل الروضة ومساحتها ٦٣٩م بسعر المتر
٣ ج فلراغب الشراء المعاينة والحضور لمحكمة مصر
الشرعية بجلسة ١٦ يناير ١٩٤٩ ومعه التأمين وسألت
أين تذهب هذا المساء؟ وأجابت بأن الفرقة المصرية بدار
الأوبرا الملكية اليوم عطلة وأن شكوكو وفرقته بمسرح
الأزيكية ت. ٦٣٤٠ سامية - كارم وفرقة بديعة وببا
كازينو بديعة استعراض أبو طرطور ألحان موسيقى
وحلمية بالاس ت ٦٢٠١٧ استعراضات - زوزو كوكا
وسراج منير في إيزيس لص بغداد بالألوان الطبيعية
وناطق باللغة العربية.

هل كنت يومها في معتقل أبو قير؟

لم نكن قد رحلنا بعد إلى الطور.

ولم أكن قد استيقظت لأجد نفسي في حلم المعتقل

المهجور والصحراء التي يشقها طريق مثل طريق

العباسية الثانوية، أو الطريق الصحراوي الذي كنت
أشتغل فيه مع خالي ناتان، جنب الرست هاوس.
ولا على كوابيس اليقظة التي تستغرق، كل يوم، أبداً
من الزمن، وهو مازال على حافة النوم حافة الموت عندما
يجتاحه رعب أن الحياة قد انقضت، من غير جدوى، ومن
غير معنى، الجهاد الحسن والاستبسال أياً كانت حماقته،
- أو نبالته ربما؟ - والرمى بالنفس في وجد الاستعداد
للاستشهاد من أجل أشياء أياً كان تهافتها وسخفها - أو
سموها ربما، وسحرها على كل حال - والخيبات،
والجبانات، والخذلان، والصمت، والتقاعس، والقسوات،
والكدح المتصل من أجل الحب، والرزق، وشهوات الروح.
انقضت، ولّت، انحسرت، ولم تبق أمامه إلا أيام المرض
والعجز والألم، الهواجس الموصوفة في الكتب، والوساوس
المأثورة وطأتها ليست أقل لأنها مكتوبة ومعروفة، وصور
النهايات المحتملة والمتخيلة المضروبة قدراً أو المضروب
ميعادها بعمد وإرادة في فعل نهائي مرتب ومقصود ومعد
بعناية، أسوف يأتي في الظلمة غير الكاملة؟

فيقوم منتفضاً، يوقظ معه الموسيقى الكامنة، ويتلّهي
بطقوس الصباح، دون تلهية، يا فتّاح يا عليم، اصطبحنا
واصطبَح الملك لله! أم هو الطريق الترابي الضيّق بين
دكان عمّ شنودة البقال في الطرانة والسور الطويل المبنى
من الطوب اللبن، ما زلت أقطعه؟

باب دكان عمّ شنودة قد صغر وضاق، أصبح كوة لا
أعرف كيف يمكن أن يخرج منها أحد. السور مازال
طويلاً طويلاً لا آخر له، سور بيت الشيخ علوان الحائط
السدّ في الطرانة، سور الجبّانة في الشاطبي سور سينما
ماجستيك المحترقة سور الجنيّة القبليّة في الصعيد حيث
قتلت هنيّة سور الروح المحاصر المحيق، وكائنني أظل
أذرع هذا الطريق، تحت هذا السور، بلا وصول.

قالت له إن فرانسيس بيكون قد مات قال ألم تلحظي
قطّ تأثير جوجان الوحشي عليه؟ قال كان ذنباً مستوحشاً
والعالم عنده دغل متفجّر شائه قالت ألم يكن يعشق
الغلّمان أو يعشقونه؟ قال ولم يكن يسقط كأس الشمبانيا
من يده أو لا يكاد، قالت تشكّلاته تشويّهات قال مؤارة

بالْحُمَم الجسدانية الحارة، أَلَمْ تكن المسوخ أمشاجا
وأبضاعاً تنز وتنزو بدم اللون؟ وتستصرخ بلا مجيب؟ قال
إن الحوشية عندهم فى أدغال الألوان والأهواء، فنون
وشجون.

قالت إن صديقه بشاى أبسخيرون حوشى المنازع فى
الرسم وفى الشبق سواء.

قالت له عندئذ فقط: أنت الحوشى المؤدب، وأما هو فقد
كان لجوجاً وملحاحاً وهو يعرض على أهواءه «الحوشية»
- كما تقول أنت الآن - قالت كنت أصدّه برفق مرة
ومرتين ثم بحسم حتى ارعوى!، قال لها مرة فى سان
فرانسيסקو قضى ليلة مع مومس غالية الثمن فى غرفته،
وسكر، ولما استيقظ وجد نفسه عارياً تقريباً، بالفانلة
واللباس، ووجد غرفته أيضاً شبه عارية، اختفت لوحاته
وكتبه، هذا ما أحزنه حقاً، للحظة. واضح أنها كانت
شرموطة مثقفة أيضاً إلى جانب أنها لصّة، فقد ذهب
معطفه الفرو الفاحش الثمن، وسلسلة ذهبية ١٨ قيراط
غليظة وثقيلة كانت تسقط من عنقه حتى بطنه، وكل ما فى

محفظته من أوراق النقد الأمريكية والفرنسية وأخذت
أيضاً جواز السفر ورخصة السيارة التي كان قد تركها
في باريس وبطاقة الائتمان الخاصة التي لا تنفع أحداً
غيره، أعلى سبيل انتقام ما؟ لكنه - بطبعه - لم يبال
كثيراً، أو قليلاً، ترك الأمور كما يتركها دائماً تجرى في
أعنتها، فلعله كان قد نسي رقصته تلك معك، وأنا أهشّم
بيديّ العصبيتين أضغاث الورد القديم، كما نسي يقظته
تلك في غرفة سان فرانسيسكو، في العراء.

قال لها ألم تفتحي له، ليلتها، ثغرة نور خضراء في
قلب انصباب السديم الأصهب الأرمد الكابي؟ ألم تكن
أصابعك تدغدغ الشعر الكثيف في مؤخرة رأسه المحنى
عليك بلهفة وأنتما ترقصان؟

أ تلك عادة من عادات الرقص عندك؟ في تلك الليلة
الأولى كنت تفعلين ذلك نفسه مع الفلسطيني، في شرفة
من بيت موسكوفي عربى التصقت به، وعبثت بالشعر في
مؤخرة عنقه وأنت ترفعين إليه عينيك الواسعتين
الضارعتين. ولدهشتي، ومفاجأتى قذفت أنا، كائننى

تَقْمُصْتَهُ. وَنَمَتِ مَعَهُ، كَيْ تَقُولِي لِي عَلَى سَبِيلِ الْمَفَارِقَةِ إِنَّكَ
تَحْبِيبِنِي أَنَا.

لَيْلَةٌ أَنْ كَدْتَ أُمُوتَ، فَيَزِيْقِيَا، وَأَنَا أَقْذِفُ بِأَحْشَائِي
وَبِالْعَالَمِ كُلِّهِ مَعَاً، تَحْتَ الدُّوْشِ، هَوَاناً وَرَفْضاً. وَبَعْدَ
نِصْفِ نَوْمَةٍ تَنْفُضُهَا رَجَفَاتُ الْأَلَمِ الْمُتَّصِلِ جِئْتَ تَوَدِّعِينِي
فَجَرَأً، وَتَيَقَّظْتَ عَلَى رِسَالَةٍ مِنْكَ لَمْ أَتَحَقَّقْ مِنْهَا، حَتَّى
الْآنَ، رَغْمَ الْمَوَاقِفِ وَالْمَحَبَاتِ.

كُنْتُ أَسْحَقُ بَيْنَ أَصَابِعِي أَوْرَاقَ وَرْدَتِكَ النَّاعِمَةِ
الْمُخْمَلِيَّةِ، رَطْبَةً بِالْغَدَى السَّخْنِ حَرِيْفِ الرَّائِحَةِ.
لِمَاذَا جُرُوحُ الْعَشْقِ لَا تَنْدَمِلُ أَبَدًا؟

صَعْبُ تَرْوِيضِ الذَّنَابِ، وَثَمَرَةُ الْفَنِّ - وَالْعَشْقِ -
يَسْتَحِيلُ كِبْحُهَا وَإِنْ كَانَ جَمُوحَهَا قَاتِلًا. عَطُورُ الْحَرِيمِ لَا
تَهْدِدُ مِنْ غُلُوءَاتِهَا، وَلَا قَطْرُ الْيَاسْمِينِ وَالْمِيمُوزَا وَاللُّوْتَسِ،
وَلَا عَجِينَةُ عَنَبِ كَشْمِيرِ الدَّاكِنَةِ لَزُوجَتِهَا الْمُتَمَاسِكَةِ وَبِرُودَةِ
مَلْمَسِهَا عَلَيْهِ إِذْ تَدْلُكُهُ بِهَا وَهُوَ نَائِمٌ مَرْتَحٍ شَبْعَانٌ بَعْدَ
سُورَةِ الْهَجُومِ. مَسْكَةُ حَنَانَةٍ وَحَاسِمَةٍ وَمَتَوَثِّرَةٍ وَمَحْنُكَةٍ
فَيَتَنَبَّهُ وَيَشْتَدُّ وَتَتَدَفَّقُ فِيهِ مِنْ جَدِيدِ دِمَاءِ الْعَشْقِ وَالْفَنِّ وَقَدْ

خزلت منها تدويرات أعضائها وطيات أثدائها وتنزيات
أطرافها وعكنات بطنها حقاق طرية مليئة بدهن اللبان
المياه الذهبية اللبنيّة تنبجس فجأة لها دوى طبل العالم
قرع الصنوج فى الخواء الممتد بلا نهاية.
تلك يقظة.

واليقظة الأخرى الأنيسة فى صباحات هادئة ووديعة
على أصوات الشارع الصغيرة: تنفيض المرتبة فى بلكونة
مجاورة صوت الراديو وحوار عائلى صباحى يصل بعيداً
غير مستبين المعالم أصوات أليفة ليس فيها اقتحام بل
تبطن الصباح بحشو رقيق الجسم دردشة الجيران من
الشبابيك وعبر البلكونات تأتى من غير وضوح تخبو
وترتفع فجأة وعنها يا سِتي إديته كلمتين فى عضمه هو
انا حاسكت له برضو، فشر وغلاوة ولادك بلاش وغلاوة
ولادى ويروح الحوار فى تضاعيف نداءات البيّاعين من
تحت بيكيا روبابيك المدمس لوووز جمبرى عنبر جمبرى
بنور البصل البصل الجديد يساريا لوف الحمام صوت
احتكاك المكنسة القش بالبلاط وسقوط قطرات منتظمة لها

إيقاع رقيق من حنقية الحوض فى المطبخ كلك غسل يا
توت أهرام مصرى الاثنين والدنيا اقرا فكرى أباطة
احتكاك عجالات ترام الرمل بالقضبان وصلصلة جرسه
البهيجة وترداد هديده بين الحيطان حس الملاءة النظيفة
واللحاف غير ثقيل ومطمئن حس جسمه بينهما وتماس
فخذه وتوتر ما بينهما فى غير تطلب لشيء ما الآن وحتى
عند صعود صوت ملتا ع من الشارع إلهى يهدك يا شيخ
بحق سيدنى العباس المرسى لاحسن دا حرام عليك حرام
والنبى بقايا زقزقة العصافير المتقاطرة القليلة الآن فى
قلب أوراق الشجر الملتفة تخرق هذا الصبح العالى
بطعناتها الحادة ربنا ع الظالم روح يا شيخ ربنا ع
المفتري خفوت الدعوة اللاعبة فيها قبول ورضى مضمرة
وترك الأمر للتصاريف غير المحسوبة وانبثاقات قصيرة
لنفير السيارات العابرة القليلة وأغنية على محمود طه
المهندس من الراديو كليوباترا أى حلم من ليالك الحسان
ينادى فى تنغيم يبدو شجياً فى هذه اليقظة بالصوت
الحلو الذى آل إلى كهولة ناضجة.

بعد أربعين، خمس وأربعين سنة يكتب للأهرام مصطفى السمان مقيم ٣٠ شارع السبع، امبابة، عن تلك السيدة التي كانت عندئذ، في مثل ذلك الصباح، في نحو العشرين من عمرها. أين كانت ومن أين أتت؟ من الفلاحين؟ هل كانت - ذلك الصباح ، مثلاً - تحمل البلاص على رأسها، في قرية من قرى امبابة، تأتي بالماء من الموردة في النيل؟ وتقضي النهار في رعى الجاموسة التي تأكل الحلفا وأنواع الزرع الشيطاني على شطّ النهر الذي كان مايزال بريئاً؟ هل كانت من وسط البلد أم من أطرافها؟ هل كانت في بيت أبيها أم كانت تخدم في البيوت - عندئذ، سنة ١٩٤٧ مثلاً - وتنزل نشيطة ناهضة الصدر خفيفة الخطو في جلابيتها البلدي لتأتي لهم بملء الطبق الصاج الكبير، بتعريفة فول مدمس؟ أم كانت تبيع الفجل والجرجير الحزمة بمليمين على قفص الجريد المغطى بخيشة مبلولة؟

«في بداية شارع ترعة السواحل من ناحية المحكمة بامبابة كيت كات أجد كل يوم سيّدة في الستين من

عمرها تجلس فى مفترق الطريق العمومى وتحت عمود الكهرباء، فى الرصيف الصغير الذى يفصل اليمين عن الشمال» (شُفْ دِقَّة مصطفى محمد السَّمَان وحفاوته بالتفاصيل!).

«وتفترش بقايا حصيرة وبجوارها بقايا بطانية وصحن وقلة وتجلس طوال النهار وفى الليل تنام وتتغطى بالبطانية ورغم أننى تأثرت وأنا أراها تحت المطر إلا أننى جلست أتعجب..»

(أين، ياترى، جلس مصطفى محمد السمان يتعجب، على الرصيف الذى يفصل.. إلخ).

«عندما رأيت كلباً يجلس بجوارها يحرسها من أقدام المشاة ومن الأولاد، وعندما سألت عنها قال لى أحد البائعين إن هذه السيدة فى هذا المكان منذ سنوات عديدة تنام وتستيقظ فى الشارع ومعها هذا الكلب..» ٢ أبريل ١٩٨٧.

تنام وتستيقظ فى الشارع..

أما فى ٣٠ يونيو من العام ١٩٨٧ نفسه فقد كتب منير

المسيرى، للأخبار، من مدينتى العظمى الاسكندرية
القدسيّة الحوشيّة المهذرة والأبدية أنه قد:

«كشف بلاغ من أبٍ بالاسكندرية عن جرائم بشعة
ارتكبها طبيب بمستشفى الشاطبى باسم البحث العلمى!
كشف الأب اختفاء جثة ابنه الوليد بالمستشفى.. وماطله
المسؤولون بالمستشفى فى تسليمها له.. وبعد أسبوع
تسلّم الجثة بدون رأس!!

«تقدم الأب ببلاغ إلى العميد محمد مكاوى مأمور
قسم باب شرقى.

«كشفت التحريات أن طبيباً بالمستشفى يعمل مدرساً
مساعداً بقسم البيولوجى بكلية طب أسنان الاسكندرية
قام بقطع رأس الوليد لإجراء أبحاث علمية عليها.. اعترف
الطبيب فى التحقيقات أنه اعتاد قطع رؤوس الأطفال
المتوفين الذين لا أهل لهم لإجراء الأبحاث عليها.. وأن
المسؤولين بالمستشفى يلقون بجثث الأطفال فى حمام
المستشفى حيث يقوم هناك بقطع رؤسهم. وقال إن جثة
هذا الرضيع أُلقيت خطأ مع هؤلاء الأطفال!!

أُحيل الطبيب إلى النيابة.

وماله؟

البحث العلمى طبعاً لا يعنى كثيراً باعتبارات أخلاقية

أو اصطلاحات اجتماعية من نوع قديم الطراز.

وهل جاءت - يعنى - على هذا الرضيع؟

فماذا نقول عن الكبار الذين تقطع رؤوسهم - وأى

من أعضائهم أيضاً - فى كل مكان، ثم يلقون، هكذا، فى

المقابر الجماعية أو الفردية التي لا شاهد عليها ولا اسم

لها؟

فى كل مكان.. وعلى طول الزمن.

باسم البحث العلمى أو باسم أى شىء.

وماله..

ما أجمل أن اليقظة لن تأتى، يوماً.

سوف تحرمنى الظلمة من جمال الظلمة.

تيقظت من نومى - هل تيقظت قط؟ هل أتيقظ أبداً -

فى قطار السكة الحديد المؤلف الذى لم أنزل منه حتى

الآن، بعد قلق النوم على خشب مقعد الترسو الناشف

المهتز، وجدت أن القطار يمشى ببطء فى ساحة المحطة
التي لا آخر لها، القضبان المتشابكة المتشعبة هي هي لم
تتغير، تتوازي وتتلاقى وتنشق وتنعرج وتستقيم ولا
تتشابك ولا تصل إلى غاية، ووجدت أننى لا أعرف أين
مقعدى الذى قضيت ليل العمر الطويل عليه، جعلت أقطع
القطار، أذهب وأجى، أبحث عن مكانى، أجد الكراسى
مائلة ومخلوعة ولها ظهور نصف مقصومة وناثئة العظام
الخشبية وقد طلع الحشو البلاستيك منها في نتف
اسفنجية الشكل وقذرة. ألقى الكمسارى فيقول لى
بانكسار: «العربة نمرة ستة، أنت طلعت العربة أربعة.
ليس هنا. ليس هنا».

وكأن عربات القطار تتكرر وتتزايد وتتمدد أمامى،
وتختلط أرقامها على، أسأل الركاب، نصف نائمين، لا
يجيبنى أحد.

تنظر إلى المرأة الهائلة الأعضاء فى ملايتها اللف التي
تسقط عن كتف مدملجة مدورة - كما تسقط دائماً هذه
الملاية اللف - ليظهر تحتها قميص نوم ساتان عريض
الحمالات، مبهم اللون غير نظيف تماماً، نظرة خاوية إلا

من ملء الجسد الركين، لا تجيب بل كأنما هي التي
تسأل، بعينين فيهما غياب.

يشيح عني العجوز، في جلايته البلدى والبالطو
الخفيف القديم المصفر اللون، هل هو بقال؟، بوجهه المقدد
حاد العظام وفمه المزموم كأنه لا يريد أن يرانى أصلا،
مع أنه يعرف أنني أقف أمامه، أسأل أين أنا، أين أنا؟
كأنه يريد أن ينفيني. يا عم، هو أنا ناقص منافى؟

القطار يهتز، أحس أنه يسير، لكنه لا يقطع شوطاً أى
شوط كأنه يراوح في دق عجالاته الحديدية التي تكشط
جدران نفسي.

وأظل أمرّ عبر اختناقة الصبح التي لا تنجاب، عبر
الوصلات الحديد المرتجة بين العربات، من باب حديدى
مفتوح إلى باب، يلفحنى هواء فجر بارد ومُغيم.

هل أنا في محطة مصر، في اسكندرية، مسافر إلى
أخميم، في محطة كوم حمادة، قادم من الطرانة، في
أيتاي البارود؟

لا أجد، ولا أعرف، أبداً أين أنا؟

أين أنتم؟

النزوة الحادية عشرة

سوق المسلة

«أمر على الديار، ديار ليلي..»
فهل تنكرنى الديار أم يستخفى بى عرفانها؟
سماؤها بلون الكويالت الأزرق العميق فى الغسق.
لماذا يسحرنى لون الغسق؟
أنذير الغياب والفقدان؟
أم نعومة التسليم لضياغ الجسد الوشيك؟
أسمع سعف النخيل السلطاني على جانبي محطة
الرمل القديمة، يهفهف. مازالت تخايلنى حتى الآن، هذه
المحطة القديمة، وكشك ناظر المحطة الخشبي المسقوف
بالقرميد الأحمر الداكن، فيه دفء كفاءة مفقودة، احترام
الدقة التي ولّى زمانها.

أجلس فى «كازابلانكا» فى الدور الثانى، وراء النافذة
الزجاجية العريضة. الغيم فى سماء الصبح البدرى ينزلق
فوق البحر البعيد. أأنتظر بقلب واجف أن تعبر ليلى،

نعمتى، بهذه الديار؟

ليلاى صغيرة الجسد، موسيقية الخطو، مرهفة الخصر
حتى تكاد تطوقها أصابع يديّ، فستانها الأصفر الفاتح
فريد فى لونه ونسيجه وفى أناقة انسيابه على القد
الرشيّق البضّ معاً، ينوس على الساقين بسمانتيهما
الملتئتين، كاملتين فى دقّة سحبتهم، كاملتين فى دوران
خرطتهما، إيقاع مشيتها عندئذ يتردد الآن فى ساحة
روحي التي أظنها قاحلة خاوية حيناً، وأراها حيناً
مزدحمة مثقلة بكراكيب الذكريات وأنقاض السنين.

أما زلت أنتظر عبورها؟

وهى المقيمة.

لست واثقاً أننى سوف أرى الآن من تعزّ رؤيتهم، بل
تستحيل.

بل أعرف أن ذلك لن يحدث.

أهذه شذرات ممزّقة أسمع حفيفها من الداخل ولا
أرى لها أثراً؟

مادلين، ميريام، بشعرهما المنسدل الطويل، متطابقتين

تقريباً في مشيتهما شبه الآلية التي تثير الجسم. ستيفو
 ذات الثديين الهائلين التي كان يحبها فريد اسكاروس
 وظل يذكرها في المعتقل وهو يمسّ سيجارته الأبدية بين
 شفتيه الطويلتين الشهوانيتين. نيتسا تافانيوتيس ملفوفة
 في ثيابها المحبوكة دوماً، أنيقة الأوصال ولدنة ولها مهابة
 الطول المشوق والجديّة الخالصة والأنوثة الموضوعة تحت
 تحكّم عقل دقيق الحسابات. ثم أرتميس - آه من الإلهة
 الصيد الجامحة الفاتنة - تُوقع بفحول الرجال، هكذا في
 خطوها، دون اهتمام، دون أن تلقى بالاً.

إيماءات الروح المبددة، تسقط أمامها أطلال البوابات
 الحجرية التي لم توصل قط، لكنها لم تكن قد فتحت قط.
 أهذه ديار ما زلت أرتادها، أم لم أعرفها قط، ولم تكن؟
 وهل خطت رجلاي حقاً على هذه الساحات المظلمة
 بوارف الأشواق، أم هي مواقع أضمرها بعد أن حدّتها
 الأطياف الأولى، لن تبين، لعلها لم تقم، لكنها تعود، لا
 تتوقف عن مراودتي ومراوغتي.

أهذه ديار تنفيني، لأنها هي منتفية؟ أم تتغافل عني،

عمداً، تستفزنى؟

زاد قديم محفوظ مع ذلك لا تبلى بكارته، يتقطر، يغذو
النفس العطشى التي مهما رويت تظلّ صادية.

أيامها، بعد اندلاع الحرب بقليل، وبدء الغارات، كنت
أعرف جان جاك روسو، كتبت عن جنّيات وحوريات
شيكسبير فى «العاصفة» وقرأت عن داروين وجوليان
هكسلى، وتغنّيت بأشعار كيتس وشيلى، وعرفت المعلقات
والكامل والعمدة والحماسة، ودرست مستنسخات عن
لوحات پنتوريشيو ورافاييل وروبنز. ولكننى لم أكن أعرف
سوق المسلة.

قالت لى أمى: تأخذ الترام رقم ٦ من عندنا أمام
البيت، يمرّ من راغب باشا حتى شارع الخديو توفيق، ثم
النبي دانيال، ويحوّذ فى السلطان حسين حتى يدخل على
الشارع الذى نرى البحر فى آخره، شارع المسلة، وتنزل
فى المحطة التى قبل محطة الرمل.

لكننى تهت - أو سرحت، لا أعرف - وفضلت فى
الترام حتى شارع سعيد، ونزلت، وسألت، ورجعت،

وعرفت أن شارع المسلة اسمه الآن شارع صفية زغلول،
وتذكّرت وجه أم المصريين كما كنت أعرف صورته من
المجلات القديمة، الوجه المكتهل الصبوح وديع
الأرستقراطية، دمث ومترفع ورؤوم.

قالت لى: أمى: قل له صاحب البيت عايز اتنين جنيه
ونص ريال، أجرة ثلاثة أشهر مكسورة، ضرورى تجيب
معاك الفلوس، أحسن معاه حكم بالحجز. يادى الجُرسة،
يادى الهتيكة!.

كنّا نسكن فى شقة أرضية فى ٦١ شارع الشيخ
خفاجى، راغب باشا، وهى التى أحرقت فيها ثمار صباى
تلمساً لاحتراق طفولتى وأوجاع مراهقتى. كنت أرى
صاحب البيت الأرمنى ابن البلد ميشيل دفيسيان الذى
يأتى أوّل كل شهر، بالبدلة الكاملة المقيحة والبرنيطة
الرخوة القديمة ولهجته اسكندرانية قحّة لا تفرق عنا
ووجهه أسمر طويل - أضله جاء من طنطا - لكنه هذا
الصباح كان مكفهرأ ضارب البوز.

كنت يومها فى إجازة الصيف،، ترجمت جزءاً من

رواية «السهم الأسود»، كنت يومها أحلم على صورة
زوزو حمدي الحكيم في مجلة «الاثنين» القديمة العدد
٢١١ صيف ١٩٣٧ التي حكى فيها مطرب الملوك والأمراء
كيف لحن «لما أنت ناوى تغيب على طول»، وكيف كان
المرحوم حسن بك أنور وكيل معهد الموسيقى الملكي يقيم
مآدب الفسيخ، والقهوة المعمولة بالسمن البلدي، والتي
قالت فيها زوزو شكيب إنَّ الضرورة لعبت دورها:
«وساقتني إلى نهج الطريق الذي كانت تتوق إليه نفسي»،
هكذا، «نهج الطريق» «تتوق نفسي» بتلك الفصاحة التي
أضافها المحرر الفني على كلامها. وكانت زوزو حمدي
الحكيم ترتدي ثوباً سابغاً لميعاً يحبك الجسم المشوق
بتفاصيله المغوية الثديان الناهدان والخصر الهضيم
المسقوط والبطن المكور بأهون تدوير والساقان الملفوفتان.
وكان وجهها أسمر التقاطيع صابحاً وغضاً وحيّاً
ومصري الإيحاء. وشعرها الغزير واضح التجعيد وإن
كان ملتصقاً برأسها، وذراع واحدة مرفوعة عارية وبضة
وأماً الذراع الأخرى فيغطيها جناح الفستان المنسدل على

الكتف بانسياب.

وفى ظهر الصفحة المطبوعة - كلها - بالروتوغرافور
المضبوط على لون السيبيا الرمادى، كنت قد سرحت مع
الراقصة سعاد فهمى بفرقة ببا بكازينو مونت كارلو فى
الشاطبى. وكان الأستاذ محمد تيمور بك مقررًا أن يغادر
مصر إلى أوروبا يوم أول يوليو وأن يسلم قصة
السيناريو. بينما «أبحر إلى بيروت يوم الأحد الماضى
مطرب الملوك الأستاذ محمد عبد الوهاب ليتسلم بنفسه
نیشان الاستحقاق الذى تفضل فخامة رئيس الجمهورية
اللبنانية بالإنعام به عليه، وسيعود بمشيئة الله فى يوم
الثلاثاء كى يرتب أعماله فى مصر قبل أن يبحر إلى أوروبا
فى منتصف شهر يوليو المقبل».

لماذا أحتفظ حتى الآن بهذه الأوراق التى اصفرّت الآن
ورقت، فيها هفّات النزوات والأحلام القديمة التى لم تندثر
قط، هبّات شهوات الصبا الأول وغياباته، خيالات
جسدانية دائماً؟

من شارع صفية زغلول دخلت من ممر جانبى صغير

جنب آخر محطة قبل محطة الرمل، إلى سوق المسلة.
بدهتني روائح السوق النفاذة الفاحشة: اللحم الأحمر
المشبووح مصقول الجنوب وطريّ والأضلاع المكسورة
بالبساطور بيضاء حادة البياض، زيل الطيور الطازج
والقديم، نفح الفراخ المتميز الحريّف، وكانت الديوك
الرومي تقوقى فجأة بصوت ثاقب مرتفع، سيقانها مربوطة
بالأقفاص المستطيلة المصنوعة من جريد النخل الرفيع
بقضبانها المتوازية المتقاطعة، بينما ترتفع أعناقها
السوداء باللغد الأحمر المترجرج والرؤوس مستدقة
المناقير بشكلها البدائي الموحش، صوصوة الفراخ
والكتاكيت البلدي وهديل الحمام وانفلات الأرانب فجأة
من طرف إلى طرف في سجن الأقفاص.

السوق يتردد فيه الصدى، ويتجاوب الكلام والصياح
لأنه عالي السقف وحيطانه مكسوّة بالقيشاني الأبيض
النظيف، وجدت الجزّارين في داخل أقفاص زجاجية
أخرى، تحت اللافتات المكتوبة بخطّ ذهبي على أرضيّة
المرايا "تاوضروس وأبناؤه. لحوم خنزير" ورأيت وجه أبي

من وراء الزجاج.

كان جالساً إلى مكتب صغير جداً تكدّست عليه دفاتر الحسابات الضخمة بورقها السميك الذي يبدو، حينما يغلق الدفتر، مقعراً إلى الداخل بتقويس منتظم ولونه أزرق خفيف فيه خطّان رفيغان جداً بالأحمر.

كان طربوشه ما يزال مكوياً حاد الكيّة، وجهه الناحل بعظم خديّه الناتئين. ابتسم لى، بابتسامته العذبة. وكان مندّى بعرق خفيف ولكنه كان يلبس ملابسه الكاملة: القفطان الحرير السكروتة والبالطو الجبردين. أسند عصاه الأبنوس، ذات المقبض العاجى الذى على شكل رأس صقر، إلى المكتب الصغير، وكان يراجع، ويحسب، رصّة من الأوراق والفواتير وبوالص الشحن وإيصالات بضاعة السكّة الحديد وحسابات تجار الجملة.

قال لى: ربنا يسهل ويعدّلها. الليلة إن شاء الله ع العشا تكون فُرجت بإذن يسوع، ونجيب الأجرة.

ولفّ لى حنّة كبدة لدنة فى ورقة لحمية: قول لستى وست الكل تشوّحها وتوضّبها مرّة ع العشا.

كان أيامها يقضى النهار بعد النهار يلفّ في السوق،
من غير شغل، فإذا جاءه الرزق من ربنا اشتغل، باليومية،
بحسابات أولئك الجزارين أو تجار الطيور والسمن
والحبوب والبيض. بل كان أحياناً يعمل بالساعة، أو
بالشغلة المحددة، ليرجع لنا باللحمة، والمصروف. وكان
دائماً راضياً ودمثاً، وبشكل أو بآخر يدبر لنفسه كأس
الكونياك أو العرق، والمزّة، يشرب مع أمّى، ويعزم على
وعلى أخواتى، أمّا أجرة البيت...

كم تحملنا يا أبى - أنت، وأنا فيما بعد - من أجل
لقمة العيش، بشرف، حتى يعيش من نحب، فقط يعيشون،
ولكن بكرامة.

وكم أنكرت نفسى - فيما بعد - بوهم هذا الشرف
وتلك الكرامة التى يظلّ يمتهنها الخنازير.

هذا الوهم الذى لا ثمن له فى السوق وربما لا محل له
فى هذا العالم.

بعد أن صلب المسيح، وطعن، ورؤى بالخلّ، وألبس تاج
الشوك وسخر منه العساكر الرومان وسفلة المتعصّبين -

وغفر لهم - مَنْ تلك التي تلقتَه بعد أن أنزل من على

خشبة التعذيب؟

المجدلية؟

أم مريم الأخرى؟

مَنْ تلك التي تمسح ساقَيَّ المُجتهدتين بشعرها العطر

الغزير؟

«الليل مملكة اليوم والفئران والنساء».

ضحكات الصبيّين الوحشية تقريباً، في فناء محطة

مصر الواسع الفارغ الموحش تتردد لها أصداء إذ ترتطم

بالسقف الزجاجي العالي والحيطان النظيفة، الساعة

الرابعة وقطار سيدى جابر يدخل على القضبان اللامعة،

صفيره يدوى بمهابة، وترحب به صدورنا، ونصعد، ومعنا

بنات مدرسة نبوية موسى الراجعات إلى الرمل، والطلبة

يتبعونهن بأعين لامعة مكتومة الخيوية، وهمسات المعاكسة

الخافتة المؤدبة الحيية تقريباً.

قال لى شفيق: ولّة.. أنا عايز من ده!

كانت البنت سمراء غضة ملفوفة وخجولاً، تضم

الكراريس والكتب إلى نبتة الثديين البرعميين بحركة بنات
المدارس الماثورة المشهورة، ولكن نظرة عينيها الغائرتين
فيهما غواية أنثوية مبكرة تطعن الأجسام المتفتحة على
عرامة اليقظة الذكورية البكر.

كنا قد أخذنا كأسين من الدندرمة المشككة بالفسدق
والشيكولاتة والمستكة - الواحد بستة مليم - من صندوق
الجيلاتى فى ساحة فسيحة خالية فى شارع صفية
زغلول، على الرصيف المقابل لسينما رياتو. يشغله فتى
اجريجى طموح استطاع بعد ذلك أن يستأجر هذه
الساحة وأن يقيم عليها «إيليت» ذائع الصيت.

كم دفعتني الوحشة - بعد ذلك بسنين، وربما حتى
الآن؟ - إلى المقاهى بحثاً عن لحظات رفقة وأنس
بالصحاب، إلى الفريسكادور وإيليت وقهوة فرنسا،
ولورانتوس والكريستال والتجارية وكازبلانكا
وباستروديس، وحتى «قهوة الأشباح» التي كانت - على
ضيقها ووعورتها - ساحة مباريات الطاولة أو الكوتشينة
بكل حموتها وصخبها وضجيج تحدياتها ووهج

انتصاراتها وحبوط هزائمها بين رضوان القفاص وأحمد
قنديل، بين فتوح القفاص وجمال حشمت الشاعر الرقيق
الذي عاش وعلم سنين طوالاً في الكويت والعراق والذي
وصمنى بعد ذلك بالفجاجة والسماجة وثقل الدم والذي
كان يقول عندئذ: «ما خلاص ، بعد سنين تحط إيدك لا
مؤاخدة على جسم مراتك كأنك بتحط إيدك على جسمك،
ما تفرقش، ولا تحس حاجة!» أو بينهم أو أيهم وأي من
البوابين والبياعين في «أوريكو» الشاهقة التي تكبس على
حارة القهوة وتسودها. وأما أنا فكنت - ومازلت - لا
أعرف أية لعبة، ما عدا لعبة الكلمات والمعاني التي ما
أشدّ جدّيتها، وكنت أموت، معهم، مللاً وضيقاً بنفسى،
وأكتم حسى، كعادتى.

وعلى أى حال، فما العلاقة؟

ما العلاقة بين أى شىء وآخر، مهما بدا من توثق
الروابط وإحكام الوشائج؟ ومهما كانت هذه الروابط قائمة
وهيكلية؟ ما العلاقة؟

ألا تكفّ عن فلسفة الصفيح هذه؟

أم أنه - فى النهاية - ليست كذلك تجرى الأمور؟
كان شفيق راقم بسطوروس، ابن ناظر محطة السكة
الحديد فى صفت الملوك الذى يملك قيراطين أو فدانين
يعنى، الله أعلم، والذى كنت أحبه كثيراً، يأخذ معى كأس
الدندمة من الصندوق الأحمر اللامع نظافة وأناقة، على
الرصيف الآخر أمام سينما رياتو، وبينما هو يمص
العجينة الدسمة الملونة المثوجة، يعبر تقاطع السلطان
حسين، ويدخل على شارع المسلة - صفية زغلول، ويمرّ
على فرشة بائع الصحف شبه العميل شبه الصديق، وكان
الرجل الكهل الداكن اللون وسيم الملامح بشاربه الأبيض
المنمّق، يحتفظ له - من تحت لتحت - بمجلات الصور
العارية اللامعة، باردة اللمس، وكتب من نوع «بئر
الوحدة» و«اعترافات مومس» و«مذكرات إيفا» مطبوعة
على ورق أصفر خشن بالعربية - مليئة بالأخطاء
المطبعة، وهو غير مهم! وبالإنجليزية مخصوص للعساكر
الإنجليز والأسترال والأفريكاندرز. كان يحوم حول
الفرشة عندئذ، ولد حافى القدمين بجلاية نظيفة، هو

الذى أجده الآن، بعد نصف قرن، صورةً طبق الأصل من أبيه الشيخ الوسيم داكن السمرة بشاربه الأبيض المنمَّق وعينييه اللتين تحملان، مثل أبيه، إثم المغامرة داخل المحذور. وكان الرجل صديقاً لجاره حسين أبو الليل، التروتسكى القديم الذى كان جزمجيا صناعياً كامل الإتيقان لصنعتة بل محباً لها حتى العشق، وكان يعمل طول النهار حتى الليل فى الحيز الضيق المحصور بين حارة توازى شارع صفية زغلول من وراء خلفية محل الأحذية الراقى الذى تقع واجهته الأنيقة على الشارع الكبير.

تطابق الصور. تكرار الصور.

ألا أعرف غير الصور، بالروتوغرافور أو بغيره، صور طبق الأصل، صورٌ خير وأبقى من الأصل. ربما. ولكن أين الأصل؟

الآن والهواء الرطب يضرب وجهى برفق عبر نافذة «إيليت» المفتوحة على نصف قرن من الزمان تمرّ بى تلك المرأة النارية، جيباتها البنطلون الواسعة حمراء تحبك

ردفيها، بقوة، ثم تنزل، فضفاضة، مزهوة متفجرة بلهيبها
الحيواني النباتي معاً شعرها أحمر مهوَّش مرفوع
ومشتعل، كأشجار البانسيانا المتأججة هُنيئةً، أياماً ربما،
ثم تنطفئ.

كانت الثورة قد قامت منذ سنتين، وكنت مع أوديت
ولقيت حامد عبد الله مع أحمد، جالسين على الرصيف
الواسع المزدحم بالناس والبهجة واللفظ الأنيس
واسترخاء مساء الصيف، كان ايليت عندئذ مفتوحاً على
شارع صفية زغلول. وعزم علينا بإصرار. وأخذنا
الجيلاتى المستكة الشهير وقال إنهم هتفوا بسقوط
الديمقراطية وسقوط الحرية وقال إن هذه البلد ستمر
بمحنة صعبة وطويلة، قلت نعم طريق السعى إلى العدل
الاجتماعى وطرد الاستعمار طريق وعر ولكن عندك الحق،
وسكت أحمد، بحكمة، كعادته، وكانت أوديت فى التايير
الكحلى الأنيق، رشيقة وجافة القدّ تقريباً، عيناها
العسليتان فيهما معرفة مسبقة وتكذيب ولحة مكر وخوف
وترقب معاً. صدق حدسها فيما بعد.

وكأن الزمن لم يمر على الإطلاق.

أمرّ على الديار.

هذا الشوق ذاته، هذا الاضطراب الداخلى، وطيش

المغامرة من غير حساب للعواقب، وهذه اللهفة ذاتها.

قبل هذا الرصيف الواسع كنت أمرّ على كشك عبد

المنعم الذى كان يشتغل معى فى الشركة، وعرفتني به

نعمة، وكان يبيع الصحف والمجلات والكتب العربية

والفرنسية بعد الظهر. وكان شكله يشبه الديوك الرومية -

وهو يطلّ بعنقه الطويل من نافذة الكشك، ومنقارٌ فى

وجهه الشاحب ذى اللغد، وعيناه جاحظتان وحتى صوته

يقوقى أحياناً عند الانفعال أو الاستغراق فى البيان

والحساب وكنت أشتري منه «المجلة الفرنسية الجديدة»

العدد الواحد باثنين وثلاثين قرشاً وروايات فرنسية نصف

عمر أوريليا لجيرار دى نيرفال وحكاية مانون ليسكو

والشيفاليه دى جرييه للأب بريفو، والجولات الأدبية لريمى

دى جورمون، المطبوعة فى ١٠ يونيو ١٩٠٦ وكنت أدفع

حسابي بالتقسيط كل شهر عشرين قرشاً عند قبض

مرتبي وكان عبد المنعم يقف على باب الخزينة - من
الخارج - يرصد العملاء ويستوفى الأقساط، وقرأت في
المجلة الفرنسية الجديدة أحاديث لجورج پراك وأشعاراً
لرينيه شار وشذرات لأنطونين آرتو وقصصاً ليوجين
يونسكو ومذكرات غير منشورة لمارسيل پروست
واستشهاد الحلاج في بغداد بقلم لوى ماسينيون، ولكتاب
وشعراء كثيرين جرف أسماءهم بحر التاريخ الملتطم.

أما رفيق الأيام الذى صاغ منى جزءاً لا يضيع أياً
كانت صروف الأيام فقد اعتنقت نجواه: «أيها البحر
اللانهاى الذى أحالت دموع البشر مياهه العميقة إلى
أمواج من مرارة لاذعة. الفيض اللامحدود الذى تصطب
فى جزره ومدّه أمواج الموت، أمازلت جامحاً جائعاً إلى
المزيد وقد لفظت الحطام الباقية عن عواطفك إلى ساحل
الموت المقفر الماحل؟»

تطعننى - على عكس ما تريد - امرأة نضرة،
مخروطة الساقين فى الشراب الأسود الشفاف والحذاء
ذى الكعب العالى الرقيق، وهى تقول مرحبة بي:

- ماذا يمكنني أن أفعل لكي أجلب لك السرور؟
أبتسم شاكراً وعارفاً أنه سوف يعزّ على السرور.
وسوف أتنكّر لها.

وإذ يخرج الناس من سينما رويال إلى شارع فؤاد
وشارع الكنيسة اليونانية وشارع المسلة متقاربين
متماسكين في نعومة الليل الرقيق المندى كأنما يخشون
شيئاً من عمقه المخوف، يتهامسون، لا يرفعون صوتهم
كأنما يدارون بالهمس روعاً يسقط عليهم من بين أسطح
البيوت ومن أبراج الكنيسة ومن سقف السوق المخروطي
ومن حواف السماء، يضحكون بخفوت ويتلمس الرجال
والنساء من دفء أجسامهم عزاءً وقرباً ورفقة في مواجهة
هذا الليل الصموت، عندئذ كنت يا نجمتى يا نعمتى
أفتقدك حتى لا تفدحني جفوة تلك السماء وغربة تلك
النجوم يضربني هواء الليل القادم من المينا الشرقية ومن
موقف ترام البلد، محطة الرمل خالية إلا من حفيف النخل
السلطاني على الجانبين والليل ينالني في النهاية، ينال
مني أغواراً مفتوحة كجروح، أمام صخر النجوم وقفار

السماء.

وليس هناك إلا طريق اللبانة وشارع الشعري اليمانية
وسوق المسلة، أذرعها قد أصبحت شارات ممزقة تسبح
في الزرقة الصامته.

النزوة الرابعة عشر

سنة خيول

كنت أسافر أحياناً من القاهرة للاسكندرية بالطائرة.
كانت أشواقى إليها لا تحتل السفر بالديزل المجرى
الجديد، مهما بدا من سرعته وكفاحته.
ومن مطار النزهة القديم كنت أهايتها ونحدد ميعاد
اللقاء، عادة بعد ساعة، عادة فى «غزالة».
وكانت «غزالة» جنب سينما استراند، أنيقة وهادئة
وبها أرائك وثيرة ومريحة تدور حول جدرانها التى تسبح
فى ضوء غير مباشر آتٍ من كرانيش علوية فى الحيطان
مرهفة البناء. وكنا نقول إننا سوف نصنع فى بيتنا هذا
الضوء الشعاعى، وتلك الكرانيش، ولم نصنعه قط، وأما
ضوء الشعر الداخلى - مرهفاً أو عاصفاً - فقد غمر
بيتنا.

كانت هناك أيضاً موسيقى غير فجّة تنبعث من
سماعات مدوّرة قد تبدو الآن - وعندئذ - كما لو كانت

مأخوذة من إحدى قصص محمود كامل المحامى
الرومانسية جداً من الثلاثينات. لكن «غزالة» بالطبع لم
تكن مجرد اكليشيه.

قلت مرة أخرى وأخرى، بلا انتهاء:

– مهما كانت الكلمات، قادرة أو قاصرة. على السواء،
فما أبعدنا عن الخبرة الحية وما أكثر ما تحمل الكلمات
من إحياءات ودلالات وأعباء عاطفية وتاريخية وفكرية لا
وجود لها حقاً فى تلك الخبرة المعاشة مباشرة دون
وسيط.

دعنا الآن من النظر – ولو خفيفاً – إلى ما وراء
الكتابة.

كنت عندما أصل بالتاكسى إلى بيتنا فى شارع
الباشا فى كليوباترا الحمّامات، أغير البدلة، وأعنى بربط
الكرافتة – أيامها وفى الشتاء خاصة كنت أعنى بارتداء
الكرافتة: مُحبٌّ محمول على أجنحة أيام الخطوبة.

أجنحة الطائر الصبور الرؤوم لم تسقطنى قطّ.

أنتظر وصولها فى محطة الرمل التي يحف بها النخل

السلطانى العالى من الجانبين، أترقّب وصولها على خطّ
باكوس أو سيدى جابر الجامع، ونزولها من الترام الأزرق
الذى يأتى، كفتاً، وفيّاً، شديد النظافة، ودقيق المواعيد.

يثب قلبى - كل مرة، كل مرة يا ربى! - عندما ألمح
قامتها الرشيقة الدقيقة. الوجه المضى الممتلئ قليلاً
والمشرق بابتسامة صافية تكاد تكون طفليّة العذوبة،
والخصر الرقيق الرفيع الذى تكاد أصابع يديّ المدوّرتين
تطوّقانه من فرط رهافته وتهضّمه.

قالت لى إن السرّيت الذى يحيط برأسها يمكن أن
يدور حول وسطها.

نصعد السلالم القليلة إلى «غزالة»، وتتماس أيدينا -
كأنما برغمنا، كأنما بقوة لا نُسائلها ولا غلاب لها- ونحن
نغوص على قطيفة الأريكة البنيّة ناعمة الوبرة. وعيوننا
متشابكة، ليس بمقدورها أن تنفصل، بنظرة عميقة كأنما
تذهب بعيداً إلى أغوار ليست مسبورة فى الزوح.

كنا - حتى فى الشتاء - نبدأ بأن نطلب «تروا بيتى
كوشون» (يعنى ثلاثة خنازير صغيرة) ويأتى الجيلاتى

المشكّل ثلاث قطع مستديرة متجاورة: شيكولاتة وكريمه
وفسّاق، فى كأس فضيّة مصقولة لها ساق مشغولة
منمنمة.

وبعد المتعة بها - وبأحدنا الآخر - وبالحديث عن
مستقبل غامض المعالم يشعّ بالشغف والتمنى،
نُثنى - دائماً، حتى فى الصيف - بكأس من الكونياك،
أوتار أو كورقازييه - يصعد بالدم والأحلام والانتشاء إلى
الرأس.

ثم نذهب بعد ذلك فى العادة إلى سينما أمير أو مترو
أو رويال، القاعة فى كل الحالات فخمة تلك الفخامة
المبتذلة المنمطة - تبدو وثيرة وباذخة وفريدة مقارنة بما
يحدث الآن - الأضواء الناعمة المحكومة، الموسيقى المعنى
باختيارها، اللفظ البهيج الأنيس من متفرجين متشوقين -
دون لهفة ودون لهوجة - لمتعة الفرجة، وقد أخذوا زخرفهم
وازينوا، لبسوا الآنق الذى على الحبل، نفث العطور
الخافت غير الجارح يهبّ مع ضحكات خافتة قصيرة،
حتى تطفأ الأنوار.

تمتد يدي لتمسك بيدها الناعمة المطواع، أضعها على
حجري، يمتّعي الآن مجرد مسّها واستجابتها.
قد تكون «غزالة» قد ذهبت، وكل ذلك، لكنها كلها الآن
حيّة قوية الحضور.

مازلنا نستطعم لذاذة الجيلاتى - والأحلام، تصوّر! -
والكونياك، ومازلت أشعر بلمس اليدين الناعمتين
الصغيرتين عصفورتين مرتجفتين مستكنتين فى يديّ، أو
متكشّفتين على استحياء وتورّع ومغامرة معاً.

عندئذ تتبرّر ليالى الشتاء التى كم ضربت فيها على
طريق البحر، أمشى على حافة الأبد، بين أنوار المدينة
المتراجعة، ولُمع الزبد المتطاير فى الزرقة الداكنة.

عندئذ يصبح معنى لضربات الموج التى تثب من فوق
سور الكورنيش، تطس أحجار الطريق البيضاء، وتبلل
الوجه المكبوح، تبلل الوجد المكبوح.

عندئذ تجد الأشواق موضوعها الذى لا تنى تجده
وتفقدّه وتجده، باستمرار.

والجرح، بشكل مستحيل، كأنه يصبح يدها ابتسامة.

تتبدد أكوام السماء الغائمة. الظلال الراحلة تتشتت
بطعنة الفرع. رياح الاقتضاء تحمل صدى المدينة
والضحك. وقدة الشمس البهيجة تسطع بين جنبى، عطر
العود القمارى، تسقط أسوار المدينة صخور السماء.
الصحراء التي لا تنتهى ليست إلا ركناً من امتداد
روحي الشاسعة.

أنت مدينتى.

كثيراً ما كان يدخل «غزالة» رجل غريب، يشرب كأساً
على منصة البار الخالية معظم الوقت، قبل الساعة
التاسعة - وينزل يتأود فى مشيته، فى بنطلون محرق،
خالص - وجاكتة مخنصرة - خالص. يتلفت حواليه
بحركات دلال تكاد تكون غنجة، ويتكلم بصوت فيه غنة
خفيفة وهو يشير بأصابعه الطويلة إشارات كلاسيكية فى
رقتها وإيماءاتها. وكان واضحاً أنه يأتى مباشرة من
الكوافير الذى مارس على وجهه فنون الصقل والتنعيم،
بالموسى والفتلة ومختلف الكريمات.

وكانت تنظر إليه باستغراب قليل، وأحسست أنها لم

تفهم شيئاً كثيراً حينما حاولت أن أشرح لها، بقدر من التهذيب ضرورى، وقدر من الوضوح ضرورى أيضاً. ولعلها لم تعرف تفاصيل أكثر عن هذه الأمور إلا بعد سنوات طويلة، من صديقة لها كانت تبدو بمظهر المحنكة العارفة بالخفايا وهى بريئة وساذجة حتى بعد أن أصبحت جدّة. وجاءت تروى لى بخجل ودهشة حقيقية توشك أن تكون عدم تصديق، وبعبارات علمية تقريبا مأخوذة من الكتب، كيف يصنع فعل الحب هكذا.

وكان هذا الرجل عندما تضيق به الأحوال فيما يبدو ينزل درجة أو درجات فى ساحة صيده. وكنت أراه فى «كنت بار» فى شارع النبی دانيال، الحانة الدفيئة المكتظة التي تخلّفت عن عصر العساكر الإنجليز - والملايطة والأسبترال والافريكاندر والفرنسيين الأحرار من أصحاب ديّجول - ولعلّها عملت خاصة فى آخر الثلاثينات - لست أدري - فقد كانت تشغل ساحة رصيف منفرجة داخلة من الشارع بين عمارتين، قبل أن تصل إلى شارع سعد زغلول. أقيمت من جدران من ألواح خشبية محكمة،

متلاصقة، مدهونة بالأخضر الداكن زادت الأيام ومياه
الأمطار، الآن، من دكنته، في مواقع، وتتشّرّ طلاؤها عن
الخام الكابى خشن الصفرة ضارباً إلى الغبرة فى مواقع
أخرى.

كنت ألتقى بأصحابى المدرسين عند خروجهم من
المركسية الثانوية، فيهم من وصل فيما بعد إلى الدكتوراه
والبعثة ورئاسة أقسام الفلسفة أو الإنجليزى ووكالة كليات
الآداب، وكانت كأس النبيذ الأحمر - أو الأبيض المثلج -
والمزّة التي هى بمثابة عشاء تقريباً: أطباق فخار صغيرة
ولكن عميقة جليلة المحتوى، الكمونية، والكرشة شرائح
دقيقة بالصلصة، والبساريا المقلية تفرقع فى الفم هشّة
وسهلة المكسر، وأمّ الخلول المفتوحة فى صدفاتها
المستطيلة مستقرة فى مائها المتبل بالملح والخلّ وبهارات
أخرى، وغيرها وغيرها، كلّها بعشرة صاغ للواحد ونصّ
فرنك بقشيش يفعل المعجزات بطبيعة الحال، ندسه فى ودّ
- كل على حدة إذا أمكن، أو جماعياً فى الغالب - فى يد
فانديلى الجرسون الجريجى اللابس الردنجات الأسود

والقفاز الأبيض - طهرانى النظافة - وهو متخشّب
الظهر، مبتسم لنا ابتسامة بروتوكوليّة ثابتة، يتسلّل إليها
- ربما - دفء لعله مخصوص بنا، وإن كان مدفوع
الثمن.

لم أذهب بها قطّ إلى «كنت بار» على أننى حكيت عنه
كثيراً، فلعله كان صاحباً ورثاً قليلاً مهما كانت كرامة
خدمته ولذاذة مرّته.

كنت ألتقى فيه بعبد القادر نصر الله صديقى الذى
أحبه كثيراً وكان قد عاش فى قطر سنوات طويلة ولما عاد
هو الذى ذكرنى بـ «كنت بار»، وأخيه عبد الرؤوف أحياناً،
وفتوح القفاص، وسليم الأسىوطى ابن الشيخ
البروتستنتى وأستاذ الفلسفة المتفرغ الآن، دقيق الذهن
فخوراً برجعية مبررة عقلياً تبريراً صارماً، وعبد الحميد
يسرى، وأحمد صبرى الرسام - مات أخيراً هادئاً نائماً
فى بيته بالفسيوم أسابيع قليلة بعد أن رأيتَه على أثر
انقطاع دأَم سنوات - ووديع كيرلس، وإسماعيل البكرى
الذى حكى لى حكاية غريبة تظلّ عندي - على شكل أو

آخر - مرتبطة بحكاية «كنت بار».

حكى لى صديقى إسماعيل البكرى إنه عندما كان صبياً - وكان أبوه عندئذ حكمدار بوليس السكة الحديد فى المملكة المصرية بحالها - كانوا مسافرين إلى طنطا، مرة، فى موسم السيد البدوى.

فلما دخل الكمسارى الديوان المخصص لسعادة الحكمدار، نهض الرجل المهيب، وأدى التحية العسكرية - بكل دقّتها تقريباً - للكمسارى، وأمر الولد أن يقبل يد عمه سكله: حَبِّ عَلَى إيد عمك سكله يا ولد، حَبِّ..!

وصدع إسماعيل الصبى بالأمر طبعاً، وإن كان لا يفهم شيئاً كيف يحبّ على يد «عمّه» الكمسارى، وأبوه - الحكمدار - كيف يؤدى له هذه التحية؟ لم يجرؤ على السؤال طبعاً، ولكن أباه - بعد أن عاد لمجلسه الوثير فى الديوان الدرجة الأولى المحلّى بصور فوتوغرافية تقليدية، بلون السيبيا، لمعبد الأقصر والأهرامات وأبيدوس والقناطر الخيرية، فى براويز زجاجية معنى بها - حكى لابنه الحكاية.

قال إن عبد المسيح بيه سكه الكبير، عند الاحتفال بتعيد ابنه البكر فى كنيسة البطيركية القديمة فى كلوت بيه - أجر قطارات السلطنة المصرية المتجهة إلى القاهرة من كل أنحاء القطر، من الساعة الثامنة صباحاً حتى الساعة الثامنة مساءً، كلها، حتى يركبها المهنتون القادمون للاحتفال والتبريك والغدا، على حساب البيه.

قال له إن عبد المسيح بيه سكه كان يلعب بالفلوس لعب، وأنه فى الزمن القديم أنقذ عائلة البكرى من ضيقة عابرة، كانت ستتفرج على كل حال ولكنه بادر، دون سؤال من أحد، فأخرج من عبّه كيس القطيفة الأحمر ودون أن يفكّ الدويارة المبرومة التي تزرّه أو تحزمه، سلّمه إلى جده إسماعيل البكرى الكبير، مثقلاً بالجنيّات الذهب البنّتو، أمانة إلى حين ميسرة، دون ورقة، دون حساب. طبعاً ردّ اسماعيل بيه البكرى الكبير هذه الأمانة بأحسن منها، وهبه فدانين من أجود أطيان الغربية، هبة شرعية خالصة من كل شرط.

لكن عبد المسيح بيه سكه خسر كل شىء، فى بورصة القطن.

«الاسكندرية فى ٣ أغسطس ١٩٤٢

«لماذا تأبى أن نلتقى أحراراً كبيرى القلوب فى أفق الفكر الصامت؟

«ولماذا ترى الحقيقة من خلال الغضب الإنسانى الذى أرتجف له؟

«ولم تجعل من إيمانك الإنسانى درعاً لقلبك؟
«هناك مسؤولية تحيا وحيداً معها فلا تجعلها تشعرك بانفصالك ووحدتك.

«لأن من تراهم ينبذونك، أنت تحيا لهم، فاجعل من آلامك عيداً لكل إنسان.

وهل يتردد الألم فى آفاق كل نفس ما لم يكن إنسانياً؟
إننى أريد أن أكشف لكم جميعاً عن ذلك الجلال الذى يتردد بين العدم واللانهاية.

وأرغب - لو استطعت - أن أجعل من نفسى أرغفة المسيح.

لنرتفع بإيماننا إذن فوق الغضب والشهوة ولنشبع فينا
هذا النزوع الإنساني الحار كالصلاة الذي يدفعنا إلى
وضع عدالة بعد الموت يطمئن إليها النزوع الفانى.
إننى أحدث فيكم فضيلة الحرية التى حدثتك عنها.
ومن يدري؟ لعل الفناء كامن وراء كل عاطفة كئيبة، ولعل
الفناء هو الذى يدفعنى إلى تلمس الجانب الخالد فى كل
إنسان.

أجل، كثيراً ما يكون الفناء لنا بصيرة.
أريد - بحبى - كل إنسان أن يكون كالمعبد نشعر
أمامه بجلال الصراع بين الحياة وذاتها، وبينوع من
الإلزام الخلقى».

«سامى»

أى سامى، ما أقربك إلى! هل مازلت تحمل هذه
الإرادة، هذه العقيدة، هذا السؤال؟
وهل مازلت أحملها؟

فى ظهر يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٤٣ كان صوت جرس
الكنيسة المرقسية جليل الوقع، بطيئاً فى دقائقه الجنائزية

التي يأتى إيقاعها من بعيد، يضرب قلبى.

كانت العربية السوداء تقف أمام الباب فى شارع ابن
زهر، عليها تمثال الملائكة المذهبة الصغار مبسوطى
الأجنحة، محنية رؤوسها على التابوت المسجى، وأمامها
الخيول الستة، معماة، مغطاة بأوشحة داكنة الزرقة تنتهى
بشراشيب ثقيلة، والحوذى قائد النقلة الأخيرة على مقعده
العالى، فى البدلة الرदनجات السوداء والقفاز الأبيض
محكم النظافة.

وعندما أنزل الرجال التابوت المعمول من خشب الجوز
والمصفح بنحاس مذهب، وصعدوا به السلام الضيقة،
ودخلوا به البيت، كانت خالتى حنونة تطلق صواتها
الثاقب المدروس فى الشقة كلها، ليست فيه لوعة وإنما
خبرة موجعة.

انضمت إليها فى إعلان الحزن فاجع الصوت حلقة
النساء السوداءوات.

لم أرَ وجه أبى فى موته.

لم أستطع.

سارت العربية، بحركة وثيدة إلى شارع إيزيس وأمامها
بساط الرحمة الأسود يمسك به الشمامسة وأراخنة
الكنيسة، من الجانبين.

وراء العربية كانوا يسيرون بتمهل، وكانت سيارات
الأجرة، والملاكي القليلة، والحنطور تنساب بنعومة في
زحام وسط البلد، تحمل المعلمين والتجار وكتبه الحسابات
والعملاء الآتين من شارع أنسطاطي وكوم الناضورة
والجمرك واللّبان، بالعمائم والطرايش والبذل والجلابيب
والبلاطي، المسابح في الأيدي والمصاحف الصغيرة أو
الصلبان الصغيرة، لا فرق، في طوايا الجيوب، والقلوب.
وما زال الجرس المهيب يوقع على السماء بدقات
متباعدة قليلاً، عميقة الصدى.

مرّ صبيٌّ صغير، حافي القدمين، جرياً من أمام
الجنّازة، وبصق.

ذكّرني صديقي بدوي بأنني قلت له ذلك المشهد، بينما
كنت أنا قد نسيت.

غيابه الدمع أم غيامات المرارة أنستني؟

ودّع العُرابية ذات الخيول الستة.
كنت أنت وراءها في السيارة، تهزك الدموع، بين
خالك يونان وناثان، وصديق لهما، غريب، ما مكانه هنا؟
لا تستعد إيقاعها.
ولا تقل إن ذلك ذكرى قد عبرت.
بل استمعْ إلى دقات الجرس الكبير، بطيئة، ضاربة،
ماتزال ترنّ في جنبات سمائك.
ودّع العربية ذات الخيول الستة.
فقدتها، فقدت من تحمله العربية، في رحلته الأخيرة.
وما تحمله.
ولا تستطيع أن تنسى فقدان؟
لأنك - ربما - لن تمضى في عربية ذات خيول ستة.

الفهرس

- عمل نبيل ١٩٤٣-١٩٥٥ من «حيطان عالية» 7
- حيطان عالية ١٩٥٥ من «حيطان عالية» 49
- أبونا توما ١٩٤٤ - ١٩٥٥ من «حيطان عالية» 71
- قبل السقوط ١٩٧٩ من «اختناقات العشق» 95
- على الحافة ١٩٧٩ من «اختناقات العشق» 117
- الثعبان والنهد الخئون ١٩٨٩ من «يابنات اسكندرية» 145
- مجانين الله ١٩٩٠ من «أمواج الليالى» 183
- أشواق المرايا ١٩٨٩ من «مخلوقات الأشواق» 205
- بيت قديم من «مخلوقات الأشواق» 221
- اليقظة فى المعتقل ١٩٩٢ من «اختراقات الهوى» 235
- سوق المسلة من «اختراقات الهوى» 257
- سنة خيول من «اختراقات الهوى» 279

للمؤلف

● قصص وروايات

١- حيطان عالية : مجموعة قصص - القاهرة : الخراط،
١٩٥٩- ط٢ (كاملة) - بيروت : دار الاداب، ١٩٩٠.. ط٣
(كاملة مع مقدمة ودراسات) الاسكندرية: دار المستقبل
١٩٩٥.

٢- ساعات الكبرياء: مجموعة قصص - بيروت : دار الاداب،
١٩٧٢. ط٢ - بيروت : دار الآداب، ١٩٩٠.. ط٣ - القاهرة:
مختارات فصول، ١٩٩٤

٣- رامة والتنين: رواية القاهرة : الخراط، ١٩٧٩. (طبعة
محدودة) - بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر،
١٩٨٠. ط٢ - بيروت : دار الآداب، ١٩٩٢. ط٣..
الاسكندرية : دار المستقبل العربي، ١٩٩٣

٤ - اختناقات العشق والصبح: قصص - القاهرة : دار
المستقبل العربي، ١٩٨٣.. ط٢ - بيروت: دار الآداب،
١٩٩٢.

٥ - الزمن الآخر: رواية - القاهرة: دار شهي، ١٩٨٥. ط ٢ -
بيروت: دار الآداب، ١٩٩٢.

٦ - محطة السكة الحديد: رواية - القاهرة: الهيئة العامة
للكتاب، (مختارات فصول)، ١٩٨٥. ط ٢ - بيروت دار
الآداب، ١٩٩٠.

٧ - ترابها زعفران: نصوص اسكندرانية - القاهرة : دار
المستقبل العربي، ١٩٨٦. ط ٢ - بيروت : دار الآداب،
١٩٩١.

٨ - أضلاع الصحراء: رواية - القاهرة : الهيئة العامة
للكتاب، ١٩٨٧.

٩ - يابنات اسكندرية: رواية - بيروت: دار الآداب، ١٩٩٠.
ط ٢ - القاهرة: دار إلياس العصرية، ١٩٩١.

١٠ - مخلوقات الأشواق الطائرة: رواية - بيروت: دار الآداب،
١٩٩٠. ط ٢ - القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب،
١٩٩٢. ط ٣ - القاهرة مركز الحضارة العربية، ١٩٩٥.

١١ - أمواج الليالي: متتالية قصصية - القاهرة: دار
شرقيات، ١٩٩١. ط ٢ - بيروت: دار الآداب، ١٩٩٢.

١٢ - حجارة بويللو: رواية - القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٣.

ط٢ - بيروت: دار الآداب، ١٩٩٣.

١٣ - اختراقات الهوى والتهلكة: نزوات روائية - بيروت: دار

الآداب، ١٩٩٣.

١٤ - رقرقة الأحلام الملحية: رواية - بيروت: دار الآداب،

١٩٩٤.

١٥ - أبنية متطايرة: رواية - بيروت: دار الآداب، ١٩٩٧.

١٦ - حريق الأخيلة: رواية - الاسكندرية: دار المستقبل،

١٩٩٤.

١٧ - اسكندريتي: كولا ج قصص - الاسكندرية: دار

المستقبل، ١٩٩٤.

١٨ - يقين العطش: رواية - القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٧.

١٩ - تباريح الوقائع والجنون: تنويعات روائية - القاهرة:

مركز الحضار العربية، ١٩٩٨

٢٠ - صخور السماء: رواية.

● شعر

٢١ - تأويلات: سبع قصائد إلى عدلى رزق الله - القاهرة:

المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٦.

٢٢ - لماذا؟: مقاطع من قصيدة حب (١٩٥٥ - ١٩٩٥) -

القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٦

٢٣ - ضربتني أجنحة طائر ك (قصائد إلى أحمد مرسى)

القاهرة: دار حور، ١٩٩٦.

٢٤ - طغيان سطوة الطوايا -- القاهرة: الهيئة العامة لقصور

الثقافة (أصوات أدبية) ١٩٩٦.

٢٥ - صيحة وحيد القرن (قصائد إلى سامى على) - القاهرة:

دار شرقيات، ١٩٩٨.

٢٦ - دانتيللا السماء (تحت الطبع)

● دراسات

٢٧ - مختارات من القصة القصيرة فى السبعينات: مع

دراسة - القاهرة: مطبوعات القاهرة، ١٩٨٢. (نقد)

٢٨ - عدلى رزق الله: مائيات ٨٦: دراسة - القاهرة: عدلى

رزق الله، ١٩٨٦.

٢٩ - مائيات صغيرة: دراسة - القاهرة: ١٩٨٩.

٣٠ - أحمد مرسى: دراسة، مختارات شعرية - القاهرة:
١٩٩٠.

٣١ - من الصمت إلى التمرد: دراسات فى الأدب العالمى -
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة (كتابات نقدية)
١٩٩٤.

٣٢ - الحساسية الجديدة: مقالات فى الظاهرة القصصية -
بيروت: دار الآداب ١٩٩٣.

٣٣ - الكتابة عبر النوعية: دراسة - القاهرة: دار شرقيات،
١٩٩٤.

٣٤ - عصيان الحلم: مختارات ودراسات فى الشعر - أبو
ظبى: المجمع الثقافى، ١٩٩٥.

٣٥ - أنشودة للكثافة: فى الفن والثقافة - القاهرة: المستقبل
العربى، ١٩٩٥.

٣٦ - مهاجمة المستحيل: سيرة ذاتية للكتابة - دمشق: دار
المدى، ١٩٩٦.

٣٧ - مراودة المستحيل: حوار مع الذات والآخرين - عمان:
دار أزمنة، ١٩٩٧.

٣٨ - أحمد مرسى شاعر تشكيلي - القاهرة: الهيئة العامة
لقصور الثقافة (نقوش) ١٩٩٧.

٣٩ - ما وراء الواقع: في الظاهرة اللواقعية - القاهرة: الهيئة
العامة لقصور الثقافة (كتابات نقدية) ١٩٩٩

٤٠ - أصوات الحداثة: اتجاهات حداثية في القص العربي -
بيروت: دار الآداب ١٩٩١

٤١ - شعر الحداثة في مصر - القاهرة: الهيئة المصرية
العامة للكتاب، ١٩٩٩ (تحت الطبع).

٤٢ - المسرح والأسطورة، أساطير مسرحية - المنيا: دار
الأحمدى ١٩٩٩ (تحت الطبع).

● كتب مترجمة:

٤٣ - الخطاب المفقود: مسرحية أ. ل. كارجيالي - القاهرة: ا
الدار المصرية للكتاب، ١٩٥٨ (نفد)

٤٤ - الحرب والسلام : ليو تولستوى - القاهرة : الدار
المصرية للكتاب، ١٩٥٨ (نفد).

٤٥ - الغجرية والفارس : قصص رومانية - القاهرة : الشركة
العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٨ (نفد)

- ٤٦- شهر العسل المر: قصص إيطالية - القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، (كتب ثقافية) ١٩٥٩ (نقد). ط٢ : الهيئة العامة لقصور الثقافة (أفاق الترجمة) ١٩٩٩
- ٤٧- فارالاکو : رواية غينية، إميل سيسيه - القاهرة : الهيئة العامة للكتاب (الألف كتاب) ١٩٦٢ (نقد)
- ٤٨- انتيجون : مسرحية چان أنوی، بالاشتراك مع ألفريد فرج - القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، (الألف كتاب) ١٩٦٣ (نقد)
- ٤٩- مشروع الحياة : دراسة فرانسيس جاتسون - بيروت : دار الآداب، ١٩٦٧، (نقد)
- ٥٠- ميديا : مسرحية چان آنوی - القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، (مجلة المسرح) ١٩٦٨ (نقد)
- ٥١- الوجه الآخر لأمريكا : دراسة ميكائيل هارنجتون - بيروت : دار الآداب، ١٩٦٨ (نقد)
- ٥٢- تشريح جثة الاستعمار : دراسة جی دی بوشير - بيروت : دار الآداب، ١٩٦٨ (نقد)

العصرية، ١٩٩١

٥٤- نحو التحرر : دراسة هيرت ماركوز - بيروت : دار

الآداب، ١٩٧٢ (نقد)

٥٥- حوريات البحر : قصص أمريكية - القاهرة : دار

الهلل، ١٩٧٩ (نقد) .. ط٢ - القاهرة : دار شرقيات ،

١٩٩٥.

٥٦- الإسلام والاستعمار : دراسة - القاهرة : دار شهدى ،

١٩٨٥.

٥٧- الرؤى والأقنعة : قصص مترجمة - أبو ظبي : المجمع

الثقافى، ١٩٩٥

٥٨- السرير المائدة : شعر پول إيلوار - القاهرة : الهيئة

العامة لقصور الثقافة (آفاق الترجمة) ١٩٩٧

٥٩- ثلاث زنبقات ووردة : قصص مترجمة (تحت الطبع)

القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩.

صدر مؤخر عن (أصوات أدبية)

- ٢٠٢ - بالأصابع التي كالشط شعر : محمد سليمان
- ٢٠٣ - كونيلا قصص : يحيى مختار
- ٢٠٤ - الشرنقة قصص : سليمان قياض
- ٢٠٥ - مدينة اللذة رواية : عزت القمحوى
- ٢٠٦ - كتاب الأرض والدم .. شعر : محمد عفيفى مطر
- ٢٠٧ - طراوة العين قصص : نبيل نعيم
- ٢٠٨ - نخب اكتمال القمر قصص : ابتهاج سالم
- ٢٠٩ - طلل النار قصص : يوسف أبورية
- ٢١٠ - الواحد الواحدة شعر : حلمى سالم
- ٢١١ - فوق الحياة قليلا رواية : سيد الوكيل
- ٢١٢ - برجسالاتك قصص : أمين ريان
- ٢١٣ - وقائع استشهاد اسماعيل النوحى : رواية : سمير ندا
- ٢١٤ - فخاريات شعر : اسامة شهاب
- ٢١٥ - رجف الذاكرة قصص : رضا امام

- ٢١٦ - تفاصيل وتفاصيل أخرى.....شعر : ابراهيم داود
- ٢١٧ - هي وخادمتها قصص : هناء عطية
- ٢١٨ - كتاب العشق شعر : عبد الدايم الشاذلي
- ٢١٩ - حكايات جار النبي الحلو.. قصص : جار النبي الحلو
- ٢٢٠ - الحنين شعر : عبد العظيم ناجي
- ٢٢١ - نسيم الصبا..... قصص : زينب صادق
- ٢٢٢ - بندق قصص : محمود حنفي
- ٢٢٣ - الغالب والمغلوب..... رواية : مصطفى الأسمر
- ٢٢٤ - مساحات للتعب شعر : سمير عبد الباقي
- ٢٢٥ - مشتهيات رواية : سهام بدوي
- ٢٢٦ - أشعار شعر : ابراهيم رضوان
- ٢٢٧ - القابض على الجمر قصص : رفقي بدوي
- ٢٢٨ - حلاوة الروح شعر : أمين حداد
- ٢٢٩ - يوني سكس قصص : علاء البربري
- ٢٣٠ - الأرض جحيم الخائفين شعر : حسن عقل
- ٢٣١ - حلواني عزيز الحلو رواية : محسن يونس
- ٢٣٢ - فراديس الحوارى شعر: ابراهيم خطاب

- ٢٣٣- مقاطع من جولة ميم المملة قصص: حافظ رجب
- ٢٣٤- هذا دمي وهذا قرنفل شعر : وليد منير
- ٢٣٥- توتة مائلة على نهر قصص: محمد ابراهيم طه
- ٢٣٦- معلقة بشص شعر : فريد أبو سعدة
- ٢٣٧- موسم الرياح رواية : سمير المنزلاوي
- ٢٣٨ - كيف طاوعك الرحيل؟ شعر : مختار النادى
- ٢٣٩- تحولات إنسان عابر قصص : جمال زكى مقار
- ٢٤٠- خيانات ذهنية قصص : مى التمساني
- ٢٤١- ذهبت إلى شلال قصص: بهاء طاهر
- ٢٤٢- حالات التعاطف قصص: نورا أمين
- ٢٤٣- تل القلزم رواية : محمد الراوى
- ٢٤٤- لحظات غرق جزيرة الحوت محمد المخزنجى
- ٢٤٥- صور من ألبوم نيويورك شعر : أحمد مرسى
- ٢٤٦ - بروقات قصص : عفاف السيد
- ٢٤٧- ريحة البلاد الثانية شعر : ابراهيم سلامة
- ٢٤٨- ثلاثية الوجع قصص : بهاء السيد
- ٢٤٩ - تعاسات شكلية قصص : محمد الشاذلى

- ٢٥٠ - كوميديا شعر : فارس خضر
- ٢٥١ - آخر حبه مزيكا شعر : صادق شرشر
- ٢٥٢ - السيدة التي قصص : صبرى موسى
- ٢٥٣ - شال من القطيفة الصفراء... قصص : عبد الوهاب الأسواني
- ٢٥٤ - فى هذا الصباح قصص : أبو المعاطى أبو النجا
- ٢٥٥ - دكه خشبية رواية : شحاته العريان
- ٢٥٦ - زهرة البستان قصص : فؤاد قنديل
- ٢٥٧ - الجرذان قصص : فاروق حسان
- ٢٥٨ - أسفار الملك الضليل شعر : حسن النجار
- ٢٥٩ - هذا ظل الأرض على قلبى..... شعر: فتحى فرغلى
- ٢٦٠ - ذلك الجانب الآخر شعر : حسن سليمان
- ٢٦١ - الحياة مش بروفة شعر : مجدى الجابرى
- ٢٦٢ - شخص غير مقصود... قصص : منتصر القفاش
- ٢٦٣ - عمل نبيل قصص : إدوار الخراط

رقم الإيداع : ٩٩/٨٦٧٩

شركة الأمل للطباعة والنشر



الهيئة العامة
لقصور الثقافة

263



أصوات
أدبية

قصص

وكان الليل هادئاً وهو يرجع إلى البيت،
والنجوم ترمقه من بين سطوح المنازل،
والحيطان ترتفع على جانبيه، صامته في
كبر، والأنوار قد أنطفأت في النوافذ،
والأحجار مقفلة على الحيوانات التي تنبض
وتتنفس وتمور خلفها، مسدودة، مصمتة.
والتعب يتفتر بجسمه، ولا هدنة هناك،
وإنما هو الشوق ينزع به إلى الدفء
يتلمسه من جسم امرأته في الليل، حتى
الصباح، وقد عاد لا يدفعه إلا الرهق حتى
يأوى إلى قطعة من الأرض ألفها ويؤوب
إلى حزن أنثاه، ينشد ليلة راحة، حتى
الصباح.

Bibliotheca Alexandrina



0423162



المركز القومي للدراسات والبحوث



جنيه واحد